

نداءات إلى الشباب العربي

- مقالات في النقد الاجتماعي -

الدكتور زكريا إبراهيم

نداء إلى الشباب العربي

- مقالات في النقد الاجتماعي -

بقلم

الدكتور زكريا ابراهيم

الطبعة الأولى

١٩٧٣

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

الإهداء

... إلى الذين يؤمنون - مثلي - بأنه ليس في النجاح إعجاز، بل هناك "مبادأة" لكي يكون ثمة إنجاز!

... إلى الذين يؤمنون - مثلي - بأن الضعفاء يلقون باللائمة على الظروف، وأما الأقوياء فإنهم يصنعون التاريخ!

المؤلف

تصدير

لم يعد كاتب هذه السطور — اليوم — شابا يحق له أن ينطق باسم الشباب ، ولكنه يحسب أنه واحد من « شباب الشيوخ » الذين لم يفقدوا بعد حماسة الشباب ! وربما كانت السمة الأساسية التى تميز الشباب ، هى تلك « الحماسة » العارمة التى هيهات لها أن تفتر ! وإلا ، فهل يستطيع أحد أن ينكر عليك شبابك ، إذا كنت تستقبل كل يوم من أيام حياتك بحماس متجدد ، منتظراً الغد بنفس الحماس الذى ودّعت به الأمس ، إن لم يكن بحماس أكبر ؟ أجل ، أنت « شاب » لأنك تحيا بعمق ، وتؤدى دورك فى الحياة بنشاط ، وتنظر إلى مستقبلك فى ثقة ... أنت « شاب » لأنك تعلم « أن الروح لم تخلق لكى تُهزم وتنهار ، بل لكى تحقق لنفسها الغلبة والانتصار » ! ... أنت « شاب » لأنك تعلم « أن فى يدك أنت يكمن سرّ روحك ، إذ أنك أنت وحدك الذى تستطيع أن تعيد إليها حماستها وحيويتها ، مهما تقدم بك العمر . » ! .. أنت « شاب » ، لأنك تهتف مع الشاعر اليونانى قائلا : « إن من تحبه الآلهة يبقى شابا حتى يوم الممات » !

... ولكنك شاب عربى يحيا فى مناخ سياسى معين . ويجتاز ــ مع أمته ــ حقبة خطيرة من حقب التاريخ العربى فى الربع الأخير من القـرن العشرين . وأنت تعيش ــ الآن ــ أزمة حضارية هامة من أزمات الوطن العربى الكبير . لأنك تعانى آثار الهزيمة التى لحقت بأمتك على أعقـاب حرب ٥ يونيه (حزيران) سـنة ١٩٦٧ ولا شك أنك لا بد أن تكون قد مارست عملية « النقد الذاتى » (إن لشخصك أم لمجتمعك) ، على أثر نكبة حرب الأيام الستة . ولكنك قد تشعر ــ معى ــ بأننا ما نزال ــ حتى اليوم ــ فى حاجة ماسة إلى تذكير إخوتنا العرب ــ فى كل أرجاء الوطن العربى الكبير ــ ببعض دروس الماضى القريب ! إننى أعتقد ــ ولعلك تعتقد معى ــ بأن ثمة حقائق أساسية ما تزال تفتقر إلى المزيد من التكرار ! وليس من حرج علينا لو أننا حاولنا اليوم ــ ولو للمرة الواحدة بعد الألف ــ أن نعود فنبرز تلك الحقائق من جديد . آملين أن يعيها الضمير العربى بكل حدة وصرامة !

وإذا كنا قد أطلقنا على هـذه « الحقائق » الكبرى اسم « نداءات إلى الشباب العربى » . فذلك لأننا رأينا أن نتجه بهـا إلى الورثة الشرعيين لحضـارة المستقبل ! صحيح أن « الشباب » قد لا يحمل ــ وحده ــ مسئولية (الهزيمة) ، وصحيح أيضاً أنه قد لا يكون صاحب اليد الطولى فى « أزمة المجتمع العربى المعاصر » . ولكنه بلا شك « صانع التاريخ » ، ودعامة كل « تغيير اجتماعى » مقبل ... إننا نعلق عليه كل

الآمال . لأنه يمثل — فى نظرنا — « الإمكانات » الكبرى الراقدة فى أحضان هذا المجتمع العربى الكبير . ونحن حين ندعوه إلى المزيد من الجهد ، والعمل ، والإنتاج (إلخ) ، فإنما نخاطبه باسم تلك « القيم » العربية التى طالما آمن بها الإنسان العربى فى لحظات مجـــده ، وعظمته ، وقوته . وقد لا تكون هذه « القيم » ســـوى مجرد « فضـــائل » : فإن « الشجاعة » هى « فضيلة البداية » (أو المبادأة) ، و «الوفاء» هو « فضيلة الاستمرار » (أو المواصلة) ، و « التضحية » هى « فضيلة النهاية » (أو الخاتمة) . وكل هذه « القيم » (أو الفضائل) إنما هى سمات النفس المتفتحة التى تدرك أن الزمان لم يتوقف ، وأن الأفق ما يزال مفتوحا ، وأن الأمل ما يزال معقوداً ! وقد تكون كل هذه الكلمات أحاديث معادة ، ولكن ما أصدق الكاتب الفرنسى لوتريامون : Lautréamont حين يقول : « إن المرء لينطق بكلمات قوية متينة ، حين لا يضع نصب عينيه أن يقول أموراً غير عادية ، أو أن يأتى بعبارات خارقة للعادة ... » !

زكريا ابراهيم

مقدمة

« هل اكتب ؟ ولم اكتب ؟ ولمن اكتب ؟ وماذا اكتب ؟ » :

أسئلة أربعة قلما يطرحها الكاتب على نفسه قبل أن يشرع فى الكتابة ، ولكنها فى الحقيقة أسئلة حيوية تفرض نفسها على حملة الأقلام فى مجتمعنا العربى المعاصر ، خصوصاً فى هذه الآونة التى قد يكون « الصمت » فيها صـــورة من صور « الخيانة » ! وليس أيسر على المشتغل بالفلسفة من أن يلتزم ضرباً من « الحياد الفكرى » ، زاعما لنفسه أن الصمت ــ أحياناً ــ أبلغ من الكلام ، ولكن من المؤكد أولا أن « الحياد » هنا ــ إن وجد ــ لن يكون إلا صورة من صور « اللامبالاة » أو « عدم الاكتراث » ، كما أن « الصمت » ــ ثانياً ــ لن يكون إلا مظهراً من مظاهر « الهروب » أو « الانسحاب » ! فليس فى وسعنا أن نحتمى بقوقعة « الحياد » ، وليس فى إمكاننا ــ بل ليس من حقنا ــ أن نلوذ بمعقل « الصمت » !

ولكننا لا نريد أن نتكلم ، لكى نضع بين يدى القارىء حديثاً مشوقاً لا غناء فيه ولا طائل تحته ، بل نحـــن أزهد الناس فى أمثال هذه الأحاديث العابثة ، لأننا على ثقة من أننا لا نحيا الآن فى عصر ترف فكرى يستطيع الكاتب فيه أن يقول

ما شاء كيفما شاء ! إننا نعلم حق العلم أن مجتمعنا يجتاز مرحلة حاسمة من مراحل تطوره . فليس فى وسعنا أن نتجاهل دورنا — كمثقفين أو مفكرين — فى مواجهة أزمة مجتمعنا ، بكل ما يتطلبه الموقف من جدية وصرامة . وإذا كان بعض الكتاب قد ظلوا يمارسون مهنة التشويق أو الاستثارة ، وكأن كل مهمة الكاتب هى الظفر باستحسان القارىء أو إعجابه . فقد أصبح لزاما علينا — اليوم — أن نكتب لنوقظ القارىء ، ونهزه هزًّا ! إن من واجب الكاتب — اليوم — (وأحسب أنه واجب كل كاتب فى كل زمان وفى كل مكان) أن يتوخى العمق فى التفكير . وأن يلتزم الدقة فى التعبير ، حتى لا تجىء أحاديثه ضرباً من اللغو الفارغ أو الهراء العابث ، خصوصاً فى هذه الفترة العصيبة التى لم تعد تحتمل اللهو الفكرى أو المجون العقلى ! وأخطر من ذلك أنه لا بد للكاتب العربى — اليوم — من أن يأخذ على عاتقه ألا يضع بين يدىّ قرائه أحلاما واهمة تكون بمثابة « مخدرات عقلية » يراد بها العمل على هدهدة أفكار النــاس ! صحيح أن الخيالات العريضة بضاعة رائجة فى مجتمعنــا : لأن بلادنا — مع الأســف — ما تزال غاصّة بالواهمين ، والحالمين ، والسادرين من مدمنى هذا النوع من « المخدرات العقلية » ، ولكن من المؤكد أن الكاتب الأمين هو ذلك الذى يحاسب نفسه — سلفاً — على كل كلمة يكتبها ، وكل فكرة يذيعها ، حتى لا يسهم — بطريقة غير مباشرة — فى تزييف الحقائق أو تخدير العقول !

وحين يكون الكاتب مفكرا — أو (على الأقل) مشتغلا بالفلسفة — فإنه لن يملك — عندئذ — أن يقتصر على تزويد قارئه ببعض التأملات الميتافيزيقية المجردة ، بل إنه لا بد من أن يشعر بضرورة تكوين مفاهيمه الفلسفية انطلاقاً من الوجود التاريخى أو الواقع العملى ، ومن ثم فإنه لا بد من أن يأخذ على عاتقه مهمة إبراز « الفلسفة » — للقارىء العربى المعاصر — بصورة « النقد الاجتماعى » الشامل . وليس من شأن « الفلسفة » — كما توهم بعض التجريبيين — أن تكون مجرد انعكاس للواقع ، أو نسخة طبق الأصل مما هو موجود بالفعل، بل لا بد للفلسفة من أن تكشف عن « الإمكانات » الباطنة فى صميم نسيج الحقائق الوجودية . وبالتالى فإنه لا بد للفيلسوف من أن يبرز نقطة تلاقى كل من « الحياة » و « المعرفة » . بل كل من « الحقيقة » و « الأوضاع الراهنة » . وحين تعرف « الفلسفة » كيف تقيم ضرباً من « المواجهة » بين الحقائق التى توصلت إليها من جهة ، وبين موقف الموجود الإنسانى المعاصر من جهة أخرى ، فهنالك لا بد للجهد الفلسفى من أن يتخذ طابع التوتر الحاسم الذى يجعل من « الفلسفة » نفسها ضرورة ملحة ، ومطلبا خصبا . وهذا ما يدفعنا — اليوم — إلى القول بأن فى الفلسفة ضرباً من التشخيص العميق لأدواء مجتمعنا المعاصر : فإن المعرفة العميقة — والمعرفة العميقة أولا وقبل كل شىء — هى التى ستتكفل بتحرير مجتمعنا ، محررة فى الوقت نفسه كل أفراده !

وهنا قد يقول معترض : « ولكن ، ماذا عسى أن تكون جدوى الفلسفة ، إذا كانت كل مهمتها هى تشخيص الأدواء ؟ إنكم — يا معشر الفلاسفة — تصفون لنا الداء ، ولكنكم قلما تقدمون لنا الدواء » ! وردنا على هذا الاعتراض (كما سيرى القارىء فى تضاعيف هذه النداءات) أن تشخيص المرض هو نصف العلاج ، وأما نصفه الآخر فهو رهن بنا نحن أنفسنا : رهن بما لدينا من إرادة الشفاء ، والرغبة فى العمل ، والنزوع الصادق نحو التغيير . وهذا هو السبب فى أن كاتب هذه السطور قد تعمد — فى كل نداءاته — التشديد على « العمل » بوصفه « القيمة الكبرى » على رأس كل قائمة « القيم » العربية التى نحن فى أمس الحاجة إليها .

وما دمنا بصدد الحديث عن «العمل» ، فلا بأس من أن أروى لقارئى العربى هذه القصة : أرسل إلىّ شاب عربى أعرفه — وكان قد هاجر إلى أحد بلدان الغرب — كتاباً طويلا يشكو فيه مر الشكوى من أسلوب حياته الجديدة فى المهجر ، ويصارحنى فيه بأنه لو تجمع له المبلغ اللازم من المال لشراء تذكرة العودة ، لما تردد فى الرجوع إلى بلده ! وليس لى أن أعلق على رغبة صاحبنا : فقد يكون « الحنين إلى الوطن » أقوى من أن يقاوم ، خصوصاً فى بداية عهد المرء بالهجرة ، مع ما يقترن بها عادة من مصاعب قد تحول دون تحقيق « التكيف » على الوجه الأكمل . ولكن الذى استوقفنى فى رسالة صديقنا هو قوله : « إننى أعمل هنا أضعاف ما كنت أعمل فى بلدنا :

فإنهم هنا يعطوننا مرتبات ضخمة . ولكنهم يطلبون منا أيضاً إنتاجاً ضخماً » ! والظاهر أن صاحبنا كان يظن أنه سوف يجد في عالم الغرب حياة سهلة هينة ، يكسب فيها الملايين وينعم فيها بمستوى عالٍ من الرفاهية والرخاء ، ولكن دون أن يقدم شيئاً في مقابل ذلك !

ويخيل إليّ أننا نحن — العرب — قد ألفنا أن نأخذ ولا نعطي ، وأن نطالب بالحقوق ، دون أن نقوم بالواجبات ، وكأنّ شريعة الحياة عندنا هي « الكسب بلا عمل » ! ولا شك أن هذا الحشد الكبير من الموظفين الذين يتقاضون مرتبات دون أن يقدموا أي إنتاج ، إنما هو الدليل القاطع على أن الكثيرين من بيننا ما يزالون يحلمون بالحياة على طريقة « تنابلة السلطان » ! إنهم على استعداد لأن يأكلوا على جميع الموائد . ولكنهم ليسوا على استعداد للقيام بأدنى جهد من أجل استحقاق « الوجبة » التي يأكلونها !

والحق أننا قد لا نجانب الصواب إذا قلنا « إننا شعب لا يعمل » ! وقد أصبح الكسل والتكاسل والخمول والتواكل (وما شابه ذلك) — في بلادنا العربية — داءً وبيلا يفت في عضد مجتمعاتنا ، ويشل حركة البناء والتعمير في شتى مرافق حياتنا . وحتى أولئك الذين يعملون عندنا : تراهم دائماً أبداً ينتهجون مبدأ الجهد الأقل ، فهم لا يؤدون واجبهم إلا في أضيق حدود ممكنة ، وهم لا يضطلعون بأعبائهم إلا بقدر ما يقتضيه

استمرار العمل ! ورحم الله الكاتب الكبير كارلايل : Carlyle حين قال : « إننى أرى أنه ليس فى وسع أى إنسان أن يتقن عمل زوج من الأحذية ، اللهم إلا إذا صنعه بروح الإخلاص القلبى ، إن لم أقل بروح الورع الدينى ! وليس فى الوجود إنسان يحصل على أجره الحقيقى لقاء العمل الذى يقوم به ، وما أظن أنه يحق له أن ينتظر ذلك ! إن كل عمل — بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة — إنما هو نداء « المرئى » إلى « اللامرئى » ، أو هو صلاة خاشعة يرفعها الكائن الناقص إلى القوى العليا فى عنان السماء » !

تلك هى قدسية العمل — على نحو ما تصوّرها واحد من مفكرى الغرب — . وسيرى القارىء معنا أن العمل هو الألف والياء فى دراما الأفراد والشعوب : لأنه لا بد لنا من أن نعمل حتى نفصل فى مصيرنا لأنفسنا وبأنفسنا . فهل لنا أن نؤمن بأن « العمل » — أيضاً — قيمة من قيم « الأخلاق » ؟ ومتى نعرف كيف « نعطى » ، حتى يكون من حقنا أيضاً أن « نأخذ » ؟

وأما صاحبنا الذى يريد أن يهجر حياة العمل ، لكى يعود « عاطلا » من جديد ، فدعاؤنا له ألا يتمكن يوماً من ادخار ثمن « تذكرة العودة » ، حتى لا يزيد عدد « تنابلة السلطان » عندنا واحداً !! إننا نريد مجتمعاً جديداً قوامه شباب منتج مخلص ، يؤمن بقيمة العمل ، ويثق فى قدرة الإنسان العربى ، فما حاجتنا إلى أولئك الذين يريدون أن يحيوا حياة التعطل

والبطالة — إننا نريد شباباً عاملا يعرف أن « العمل مرادف للحياة » ، ويؤمن بأن « العمل تحقيق للذات » ، ويدرك أنه « ليس أجمل فى الحياة من أن تجىء الروح فتفرض سيطرتها على قوى الأرض » . إننا نريد شباباً يجد متعته الكبرى فى العمل والإنتاج ، لأنه على وعى بأن المضمون الجمالى للعمل رهن بما يتسم به من حرية وإبداعية ... إننا نريد شباباً يجد كل « القيم » — وفى مقدمتها قيمة « الجمال » — فى صميم « العمل » ! وماذا عسى أن يكون « الجمال » إن لم يكن هو الحياة نفسها فى سعيها المستمر نحو الكمال ؟

زكريا ابراهيم

ملاحظة :

سيجد القارىء فى هـــذه النداءات دعوات أخلاقيــة ، واجتماعية ، وسياسية ، نشرها الكاتب ــ فى تواريخ مختلفة ــ على صفحات بعض المجلات الثقافية العربية . ولما كانت هذه الدعوات قد اتخذت فى الأصل طابع المقالات المتفرقة ، فإنها قد لا تخلو من تكرار ، فضلا عن أنها ربما تكون قد ارتبطت بالمناسبات التاريخية التى ظهرت فيها . ولم يكن من الممكن ــ لأسباب خارجة عن إرادتنا ــ إعادة تحرير كل هذه المقالات، فآثرنا ــ على مضض ــ نشرها بصورتها الأصلية . وقد راعينا فى ترتيبها تقارب الموضوعات ، أكثر مما راعينا تواريخ نشر المقالات . وقد يكون فى وحدة فكر المؤلف ما يجعل القارىء يغتفر له بعض ما فى هـــذه الدراسات من تناثر ، أو تفرق ، أو تكرار ! ويبقى أن نقول إن معظم النداءات الواردة فى هذا الكتاب قد ظهرت على شكل مقالات بمجلات « العربى » ، و « الجديد » ، و « التربية » ، و « الشباب » (الأردنية) . ونحن نشكر لرؤساء تحرير هذه المجلات كرمهم وسماحتهم ، إذ أذنوا لنا بإعادة نشر هذه الدراسات ــ اليوم ــ فى هذا الكتيب المتواضع .

المؤلف

القاهرة فى ١٤ / ٢ / ١٩٧٣

شبابنا العربي أهو في حاجة إلى قيم جديدة ؟

ليس أيسر على الشباب من أن يحيا في الزمان ، وكأنّ مرحلة الشباب مجرد فترة زمنية يجتازها في سلبية إلى مرحلة الشيخوخة ، ولا شك أننا لو قسنا العمر بالساعات والأيام والشهور ، لكانت مرحلة الشباب — كأية مرحلة أخرى من مراحل العمر — مجرد فترة زمانية تقبل القياس . ولكن التجربة النفسية شاهدة بكل وضوح على أن (سنة) من عمر الشاب لا تساوى بأى حال (سنة) من عمر الشيخ : فإن فى الأولى من الخصوبة والنماء والثراء ما يجعلها مختلفة عن الثانية كل الاختلاف . وليس (الزمان) سوى تلك المادة النفسية الثمينة التى قلما يفطن إلى قيمتها الإنسان ، اللهم إلا بعد فوات الأوان . والواقع أنك حينما تهب شيئا أو شخصا جانبا من وقتك ، فإنك عندئذ تمنحه بضعة من نفسك ، وأنت حينما تضيع وقتك أو تبدد لحظات عمرك ، فإنك فى الحقيقة تضيع ذاتك وتفقد حياتك . أليس الزمان هو نسيج حياتك ، إن لم نقل جوهر وجودك ؟ وإذن فلماذا يأبى الكثير من شبابنا إلا

أن يضيعـــوا أوقاتهم ، وكأنّ الزمان مجرد (مادة) تافهة لا قيمة لها ؟. إن لحظات الزمان ــ عندالكثير من شبابنا ــ أشبه ما تكون بقطرات الماء ، فهي تتساقط من بين أصابعهم ، دون أن يقووا على الافادة منها أو العمل على استثمارها . وهكذا تفوت الفرص ، ويولى الشباب ، دون أن يخلف وراءه سوى الحسرة على العمر الضائع والأيام (السعيدة) المنصرمة . ولو أن شبابنا عرف قيمة الزمن . لما فرط فى وقته ، ولاستغل كل لحظة من لحظات حياته ، بما فيه تنمية شخصيته وترقية حياته النفسية . وما دام الزمان النفسي لا يقاس بالطول أو الامتداد ، وإنما يقاس بالعمق أو الثراء ، فستظل مرحلة الشباب هى مرحلة الإنتاج والابداع ، وستبقى تجربة الشباب هى تجربة الخصوبة والنماء .

إن شبابنا ــ مع الأسف ــ يحيا فى (تسكع عقلى) ، وكثيرا ما يكون (الفراغ) الذى يشكو شبابنا من عجزهم عن شغله . مجرد صدى لذلك (الخواء النفسى) الذى يستشعرونه فى أعمـــاق ذواتهم ... وبالتـــالى فإنهم قد فقدوا (مبرّرات وجودهم) وأسباب بقائهم . وإذا كان ثمة شيء أشـــد هولا وأقسى مرارة على الإنسان من أن يفقد حياته ، فذلك أن يفقد مسوغات حياته وأسباب وجوده .

وليس من سبيل أمام الشباب لاستعادة ثقتهم فى الحياة . اللهم إلا عن طريق استرجاعهم لإيمانهم بقيمة (العمل) . وإذا كانت الوصولية ، والانتهازية ، وشتى عوامل الســـهولة قد

عملت على الانتقاص من قدر (العمل) ، فقد آن لنا الآوان اليوم لأن نعمل على وضع قيمة (العمل) فى مركز الصدارة بين (القيم) . ولسنا نعنى بالعمل مجرد أداء الواجب لكونه واجبا ، بل نحن نعنى به حب الواجب بوصفه رسالة يحيا المرء من أجلها .

لقد كان الفنان الفرنسى الكبير أوجست روداں يقول : (إن الفنان ليقدم لنا مثالا عظيما جديرا بالتقدير ، وذلك لأنه يعشق مهنته ، ويرى أن أثمن مكافأة يمكن أن يظفر بها هى غبطته بتحقيق عمل جيد .. ولن يظفر العالم بالسعادة اللهم إلا حينما يكون الناس جميعا قد استطاعوا أن يكتسبوا روح الفنانين ، أعنى حينما يكونون قد عرفوا كيف يجدون لذة فى أن ينهضوا بعملهم) . ونحن نقول إن شبابنا العربى أحوج ما يكون اليوم إلى الإيمان بقيمة الجهد الصادق ، والعمل الجيد ، والأداء المتقن ، والرسالة الناجحة . فليس فى استطاعتنا اليوم أن ندع شبابنا ينهج منهاج الأداء السهل ، والجهد الأقل ، والعمل الهزيل ، بل لا بد لنا من أن ندعوه بكافة الوسائل إلى شن حرب شعواء على السهولة والتهاون والإهمال وشتى مظاهر (التساهل مع النفس) . ولا شك أن تشجيع (الممتازين) وفتح سبيل العمل أمام (الصفوة) أمران حيويان بالنسبة إلى مجتمع يهدف إلى خلق جيل من العاملين (الفنانين) . ولا بد فى الوقت نفسه من العمل على محاربة الكسالى والمهملين ، مع تقوية الوعى الجماعى للوقوف بالمرصاد فى وجه دعاة التراخى

والتهاون . وإنها لمهمة عسيرة — في مجتمعنا العربي المعاصر — أن نحاول بث روح العمل ، ونشر الإيمان بقيمة «العمل المتقن» في نفوس جميع أبناء الوطن العربي الكبير ، ولكنها مهمة تستحق بلا شك أن نحشد في سبيلها كل القوى . وأن نعبئ من أجلها شتى الطاقات .

على أن (العمل) الذى نتطلبه يستلزم بطبيعة الحال (استعدادا) سابقا : لأننا لا نريد لمجتمعنا جهودا مرتجلة ، بل أعمالا منظمة . وهذه الركيزة السابقة التى لا بد منها لكل عمل ناجح ، تفترض لدى صاحبها — بلا شك — رغبة صادقة في تنمية الذات وترقية شتى الامكانيات .. ولكننا نلاحظ — مع الأسف — أن معظم شبابنا لا يكاد يتجاوز مرحلة التحصيل السلبى ، فهو قلما يفكر في عملية (التثقيف الذاتى) التى هى — وحدها — أداة التميز ووسيلة الامتياز . ونحن لا نريد لمجتمعنا أن يزودنا بمتعلمين (متوسطين) لا يزيد معدل ثقافتهم عما تتطلبه برامج التعليم ، بل نريد له أن يمدنا بمثقفين (حقيقيين) لا يقنعون بما حصلوا من معارف مدرسية ، بل يسعون دائما في سبيل صهر معلوماتهم في بوتقة حياتهم الفردية والاجتماعية . وليس أخطر على المجتمع من أنصاف المتعلمين وأشباه المثقفين ، فإن هؤلاء دعاة الزيف الفكرى وعملاء الانحلال الخلقى . وأما أهل الثقافة الحقيقية فهم أولئك الذين يؤمنون بالتحصيل الطويل ، والتمثيل السليم ، والتخطيط المرسوم ، والتنظيم المنهجى ، والروح العلمية الموضوعية . وإذا

كانت الصلة وثيقة بين العلم والأخلاق . فذلك لأن (الثقافة الحقيقية) تستلزم من النزاهة ، والصدق ، والأمانة ، والدقة ، والصرامة ، ما لا يكاد يفترق عن صفات الاستقامة ، والنقاء ، والطهارة ، والعـدالة ، والإنصاف . وليس فى الإمكان أن نضمن لمجتمعنا علماء ، وباحثين ، وأصحاب رسائل ، دون أن نضمن له فى الوقت نفســه أهل فضيلة ، ودعاة صــدق ، ورجالات أخلاق .

لا بد للأخلاق من أن تسير جنبا الى جنب مع العلم

أمّا بعد ، فقد قرأت فى إحدى المجلات الأدبية حديثا ورد على لسان الفيلسوف الانكليزى الكبير برتراند رسل قال فيه : « إن أشرف ما يجب أن ترمى إليه التربية ، بعد إقصاء الخوف من برامجها ، أن تزود الأبناء بالصراحة : لأن أضرار الصدق والصراحة ــ على فرض أن لهما أضرارا ــ لا تساوى واحدا من مائة من أضرار الخوف والنفاق وعدم الصراحة » . وأحسب أن شبابنا العربى فى حاجة ماسة إلى هذا الدرس القيم الذى يلقنهم إياه شيخ الفلسفة الإنجليزية الراحل . فقد عاش مجتمعنا حقبة طويلة من الزمن على النفاق والرياء والمجاملات الكاذبة والمظاهر السطحية ، فما أحوجنا اليوم إلى جيل جديد يجابه الواقع ، ويواجه الحقيقة ، ويرفض الدجل ، ويحارب شتى مظاهر النفاق . وإذا كانت السنون الطويلة التى مرت علينا فى ظل الاستعمار الأجنبى قد علمتنا الرياء والنفاق وعدم

الصراحة ، فقد آن لنا الأوان اليوم لأن نؤمن بقيم الصراحة والصدق ، والنزاهة . وفى اعتقادى أن الشبيبة العربية تحس إحساسا قويا بما ينخر فى عظام المجتمع العربى من أدواء جلبتها عليه روح الرياء والنفاق ، فليس بدعا أن نجد صيحات التطهير ترتفع من كل جانب منادية بضرورة العمل على خلق مجتمع جديد يقوم على النقاء والطهارة والسلامة الخلقية .

... إننا لسنا فى حاجة إلى قيم جديدة أو معايير مستوردة ، بقدر ما نحن فى حاجة إلى استعادة تقاليد (تراثنا العربى) المجيد . وحسبنا أن نرتد إلى تاريخ حضارتنا العربية لكى نعرف إلى أى حد سار (العلم) مع (الأخلاق) جنبا إلى جنب فى ركب الحضارة العربية الأصيلة . ولكن ورثة هذا التراث الحضارى العظيم لم يستطيعوا مع الأسف أن يستبقوا روح التراث وأن يحافظوا على قيمه ، فأصبح لزاما علينا اليوم ان ننهض بمهمة (بعث) تلك الحضارة ، حتى تذكر الإنسان العربى المعاصر بأنه صاحب دعوة وحامل رسالة ، وأنه قد آن الأوان لأن ينهض شبابه بتحمل التبعة الواقعة على عاتقه ، لا نحو نفسه فحسب ، بل نحو مجتمعه أيضا ...

فكر؟ أجل ، ولكن أيضاً فكر ملتزم!

قال لى صاحبى ــ فى معرض نقد حاد لجيلنا الحاضر ــ : « إن شبابنا لا يفكر » ! وأطرقت قليلا أفكر فى هذا الاتهام الخطير ، ثم قلت لصاحبى : « أحسب أنهم معذورون : فإن أحدا لم يعلمهم كيف يفكرون » ! وسرعان ما وجدتنى ــ على سبيل تداعى المعانى ــ أفكر فى عبارة كانط الشهيرة : « ليست مهمة أستاذ الفلسفة أن يلقن تلاميذه بعض الأفكار ، بل إن مهمته أن يعلمهم كيف يفكرون » . أجل ، فإن شبابنا العربى ليس فى حاجة إلى مجموعة من الأفكار بقدر ما هو فى حاجة إلى منهج فى التفكير . وقد يكون بين شبابنا من يقرأ ، ولكن القراءة نفسها فى حاجة أيضا إلى « منهج » . وحين نتحدث عن « المنهج » فإننا لا نعنى مجرد « طريقة » يصطنعها الباحث أو المفكر فى دراسته ، بل نحن نعنى أيضـــا ذلك « النسق العقلى » الذى يسير المفكر أو الباحث على هديه فى كل مراحل بحثه . وإذا كانت كلمة « المنهج » تنطوى على معانى التنظيم والتخطيط والتنسيق ، فإنها تنطوى أيضا على معانى التحليل

والتركيب والتحقيق . وإذا كان الكثير من شبابنا ما يزال يفكر على طريقة « أدب المصاطب » أو على طريقة « الحديث ذو شجون » . فقد أصبح لزاما علينا اليوم أن نستعيض عن تلك الطريقة التلقائية فى التفكير بطريقة أخرى أكثر جدية وأشد فعالية .

وأنا أربأ بشبابنا أن يفكر على طريقة « عجائز السوق » : فإن إلقاء الكلام على عواهنه ، وإصدار الأحكام السريعة دون تحقق أو تثبت . وتعميم القضايا فى غير ما تحفظ أو تحرز ، إنما هى جميعـــا أمارات الفكر الطائش الذى لا عاصم له من الزلل ، ولا واقى له من الانحراف أو الشطط . وأنا حين أستمع إلى أحاديث شبابنا المثقف فى الأماكن العامة والخاصة ، فإننى أنتظر منه أن يكون فى تفكيره وتعبيره فوق مستوى السوقة والعامة من الناس .. وليس من شك فى أن ما يميز « المثقف » عن « الرجل العامى » إنما هو ــ على وجه التحديد ــ ذلك « الفكر الحر » الذى لا يقتصر على ترديد آراء الآخرين . بل يحاول دائما تعمق المسائل لحسابه الخاص . وليس أكثر من « الجاهز » فى « سوق الأفكار » : فإن الغالبية العظمى من آراء الناس لا تخرج عن كونها مجرد أفكار ذائعة لم يتحقق من صحتها أحد ، وأقاويل مشهورة لم توضـــع يوما موضع البحث ! وليست مهمة « الفكر الحر » أن يكون مجرد أداة للتشكيك أو إشاعة القلق أو إثارة الريب . وإنما تنحصر مهمته الحقيقية فى حث الناس على استخدام عقولهم من أجل «الفهم» ،

بدلا من الاقتصــار على التسليم أو التصديق أو الترديد الببغاوى ! ولا شك أن شبابنا مطالب بالعمل على تثبيت دعائم « الفكر الحر » فى وطننا العربى الكبير .

اننا فى حاجة الى ((فكر ملتزم))

ولكن « الفكر الحر » ــ بعكس ما قد يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة ــ لا يعنى « الفكر المنطلق » الذى لا يقيده قيد ولا يحده حد . بل هو يعنى « الفكر الملتزم » الذى يضع فيه الكاتب نصب عينيه أن يكتب ليواجه نفسه أمام حرية القارىء . والحق أن « الحرية الفكرية » لا تنكشف بصورتها الحقيقية إلا فى عالم « الالتزام الفكرى » . وحين يقول بعض فلاسفة الوجودية إن الأديب لا بد من أن يجد نفسه مضطرا إلى إلزام نفسه فى عالم اللغة ، فإنهم يعنون بذلك أنه ليس فى وسع الأديب أن يصمت . لأنه حتى إذا صمت . فإن صمته نفسه لا بد من أن يجىء ناطقا ! والكاتب الملتزم يعلم تمام العلم أن القول نفسه فعل ، ومن ثم فإنه يدرك ما لكلماته من خطورة بوصفها أداة اجتماعية تحمله مسئولية أمام نفسه وأمام الآخرين . وما أصدق الكاتب الفرنسى بريس باران حينما يقول :

« إن الكلمات مسدسات محشوة ، وإذا تحدث الكاتب فإنه إنما يطلق النار . حقا لقد كان فى وسعه أن يصمت ، ولكن ما دام قد اختار لنفسه أن يطلق النار ، فإن من واجبه أن يفعل

هذا كرجل ، بأن يصوّب نحو أهداف . لا كطفل يطلق النار كيفما اتفق ، مغلقا عينيه ، مقتصرا على التلذذ بسماع أصوات الطلقات وهي تدوّى من بعيد » ! .

صحيح أن الكثيرين لا زالوا يتوهمون أن المفكر يفكر لنفسه . وأن الكاتب يكتب لنفسه ، وكأن كل مهمة المفكر أو الأديب أن يخط على القرطاس خواطره وأحاسيسه وانفعالاته ! ولكن الحقيقة أنه لو وجد المفكر بمفرده ، أو لو شعر الكاتب بأنه يحيا وحيدا ، لما كان ثمة « تفكير » ، وبالتالى لما كانت هناك « كتابة » . وكما أنه ليس ثمـــة « فن » إلا للآخـــرين وبالآخرين . فكذلك ليس ثمة «فكر» إلا للآخرين وبالآخرين . وهذا هو السبب فى أن « الفكر الحر » لا بد من أن يفرض على صاحبه « التزاما حـــرا » أمام الغـــير . والكتابة ــ بهذا المعنى ــ تعـــاقد حر كريم بين الكاتب والقـــارىء ، أساسه « الثقة » المتبادلة بين الواحد منهما والآخر ، ودعامته مواجهة الحرية الواحدة منهما للحرية الأخرى . وما دام المفكّر لا يفكر إلا لقوم أحرار ، وما دام الكاتب لا يكتب إلا فى مجتمع حر ، فإن « الفكر الحر » سيظل دائما أبدا حليفا لذلك النظام الأوحد الذى يكون للكتابة فيه معنى ، ألا وهو نظام الديموقراطية . ولعل هذا ما عبر عنه سارتر حينما كتب يقول :

« إن من شأن الأدب أن يقذف بصاحبه إلى المعمعة : لأنه ما دامت الكتابة صورة من صور إرادة الحرية ، فإن كل من أخذ على عاتقه مهمة الشروع فى الكتابة ، سرعان ما يجد نفسه

ـ سواء أراد أم لم يرد ـ منخرطا فى معركة الحرية . ملتزما بالدفاع عن حريته وحريات الآخرين .. » أليس « الفكر الحر » إذن هو « الفكر الملتزم » ؟ .

نحن فى حاجة ايضا الى « تفكير منهجى » ...

ولكننا لا نحيا فى عصر ترف فكرى : فليس من حق من شاء أن يكتب ما شاء كيفما شاء . وإنما لا بد لكل كاتب من أن يأخذ على عاتقه كتابة الكلمة البناءة التى تسهم فى رفع شأن الفكر وإعلاء راية الثقافة .

ولا يمكن أن يكون معنى « حرية الفكر » هو العمل على بلبلة أفكار الناس أو بث روح الاضطراب والفوضى الفكرية فى نفوس الشباب . وإنما لا بد من أن تكون « حرية الفكر » أداة فعالة ناجعة يتخذ منها المجتمع وسيلة للعمل على إتاحة الفرص أمام الجميع لإثارة قضايا المجتمع العربى المعاصر فى صدق وصراحة وأمانة فكرية . وليس أخطر على الحياة الفكرية فى أى مجتمع من أن تكون « الثقافة » التى يحيا عليها أفراد ذلك المجتمع مجرد « أفكار جاهـــزة » أو « إطارات عقلية جامدة » ، يسلم بها الناس تسليما ، دون أن يتساءلوا مطلقا عما تنطوى عليه من معان أو دلالات . وأما « الفكر المفتوح » الذى لا يكف عن معاودة البحث ومطارحة المسائل ، دون التمسك بأية آراء مسبقة ، أو التشبث بأية أفكار جاهزة ، فهو وحده « الفكر الحر » الذى ينطلق فى آفاق البحث العقلى

غير متقيد إلا بما يمليه عليه المنطق والاستدلال المنهجي السليم .

والواقع أننا أحوج ما نكون اليوم إلى « تفكير منهجي » لا يستخرج من المقدمات إلا ما يلزم عنها بالضرورة من نتائج ، ولا يترك في سلسلة استدلالاته العقلية أية فجوات أو ثغرات ، بل يحاول دائما أن يلتزم في أبحاثه ودراساته قواعد « المنهج الرياضي » التي طالما أشاد بها ديكارت . وإذا كنا قد دأبنا على الانتقاص من قيمة «الفلسفة» ، والتقليل من شأن «التفلسف»، فذلك لأننا قلما ندرك دور الثقافة الفلسفية في تزويد أبناء هذا الجيل بروح الدقة ، والتحديد ، والصرامة .

ونحن حين نتحدث عن أهمية « التفكير المنهجي » ، فإنما نعني أنه لا بد للباحثين عندنا من توخي الدقة في استخدام المصطلحات ، ومراعاة التسلسل المنطقي في تنظيم الأفكار ، والتزام قواعد البحث العلمي في التفكير . وليس من شك في أن دراسة (مناهج العلوم) كثيرا ما تكون بمثابة مدخل ضروري إلى أية دراسة علمية كائنة ما كانت ، فما أحوجنا إلى إدخال هذه المادة الأكاديمية على شتى مناهجنا التعليمية في كافة كلياتنا الجامعية . وقد دلتنا التجربة على أن معظم طلابنا في الجامعة يجيدون تجميع المعلومات وعرض الآراء ، ولكنهم قلما يحفلون بالتزام قواعد « المنهج » في أبحاثهم العلمية . ومن هنا فقد أصبحت الحاجة ماسة اليوم إلى التشديد على أهمية « التفكير المنهجي » ، وتأكيد دور « التحليل المنطقي » في كل دراسة علمية جادة . وهذه المهمة إنما تقع أولا وبالذات على عاتق أساتذة الجامعات في شتى أرجاء مجتمعنا العربي الكبير .

... "والكيف" أيضاً في "الكمّ" !

قدم لي يوما أحد الطلبة بحثا فى خمس صفحات . فرحت أقلب صفحات البحث . ولاحظ الطالب أننى استصغرت جهده . فابتدرنى بقوله : « ولكن العبرة بالكيف لا بالكم » ! ولم يجانب محدثى الصواب : فإن من المؤكد أن قيمة العمل لا تقاس بحجمه ، بل بنوعه . ونحن فى مجتمعنا العربى كثيرا ما نغفل عن قيمة « الكيف » . فنحكم على الأشياء أو الأشخاص بعيار «الكم» وحده ، دون أن نفطن إلى أن التقدير العددى لا يغنى عن معرفة التقييم الكيفى . والأمثلة على ذلك عديدة : ففى مضمار الإنتاج ــ مثلا ــ لا يمكن أن تكون كمية السلع هى المعيار الأوحد لقياس مستوى التقدم الصناعى ، وإنما لا بد من مراعاة نوع الإنتاج أيضا ، بحيث ندخل فى اعتبارنا مدى جودة السلعة المراد تسويقها . وفى المجال الحربى ، لا يمكن أن تكون العبرة بعدد المجندين أو كمية الأسلحة المتوافرة بين أيديهم ، وإنما العبرة بنوع الخبرة العسكرية الموجودة لديهم ، ومستوى الروح المعنوية السائدة بينهم . وفى الميدان الأدبى ، ليس يكفى للحكم على قيمة الكاتب أو الأديب أن يكون له

من المؤلفـــات عدد ضخم يفوق فى مقـــداره عدد المؤلفات التى كتبها غيره ، وإنمــا لا بد من أن يكون لإنتاجه الأدبى « امتياز كيفي » يسمح لنا بتقـــدير جودة إبداعه الأدبى . وفى المضمار الفنى ــ مثلا ــ لا يمكن أن نقتصر على إحصاء عدد الأفلام أو المسرحيات التى ظهرت خلال هذه الفترة أو تلك من فترات حيـــاتنا ، وإنما لا بد لنا أيضا من أن نحكم على الإنتاج السينمائى والمسرحى بمعيار « الكيف » ، فنقدر الأفلام والمسرحيات بمدى « جودتها الفنية » ، لا بالاستناد إلى حكم « شباك التذاكر » وحده ! وهكذا الحال أيضا فى كل مجال آخر : فإن الإحصاء العـــددى لا يغنينا مطلقـــا عن التقييم الكيفى ، وإنما لا بد من إعطاء الصدارة للكيف على الكم . وكثيرا ما يقع فى ظننا أن « الإحصاء » هو كل شىء ، فى حين أن عملية الإحصاء عملية كمية صرفة ، فهى لا تضع بين أيدينا سوى مجرد أعداد صماء هيهات أن تكشف لنـــا عن الحالة الكيفية الحقيقية التى تكمن من وراء تلك الأرقام ! ومن هنا فإن القول بأن ميزانية هذا البلد أو ذاك قد زادت بمقدار كذا عن العام الماضى قد لا يكفى من أجل الحكم على مدى التقدم الاقتصادى الذى حققه هذا البلد أو ذاك ، وإنما لا بد من معرفة نوع تلك الزيادة من أجل تقدير قيمتها الحقيقية فى مضمار التحسن المالى للأوضاع الاقتصادية . وهكذا نرى أن الحديث المعاد القائل بأن « العبرة بالكيف لا بالكم » حديث صحيح تؤيده شواهد

الحال فى كل مجال . فضلا عن أنه حكم صادق تجىء التجربة مؤيدة له فى معظم الأحوال .

بيد أن الاهتمام بالكيف لا يعنى الانصراف تماما عن العناية بالكم : فقد يتولد « التحول الكيفى » عن « التغير الكمى » . وقد كان نابوليون يقول : « إن مملوكا عثمانيا واحدا يستطيع أن يهزم جنديين فرنسيين ، وفى استطاعة مملوكين عثمانيين أن يتغلبا على ثلاثة جنود فرنسيين ، وفى استطاعة خمسة مماليك عثمانيين أن يتعادلوا مع خمسة جنود فرنسيين ، ولكن فى استطاعة خمسمائة من الجنود الفرنسيين أن يهزموا ألف مملوك ! » وواضح من هذه العبارة أن نتيجة القتال — فى رأى نابليون — لا تتوقف دائما على عدد الجنود ، فإن العبرة بالتنظيم لا بالتجميع ، والمهم هو نوع القتال لا كمية المقاتلين . ولكن « التزايد الكمى » فى بعض الأحيان قد يؤدى إلى « تغير كيفى » : فإن تكتل الجماهير قد يطيح أحيانا ببعض الحكومات ، كما أن تزايد عدد أصوات الناخبين قد يؤدى إلى تعديل جذرى فى نوع الحكومة القائمة ، وهلم جرا . وليس من شك فى أن الحكم على بعض المجتمعات بالاستناد إلى مقدار دخل الفرد ، أو بالاعتماد على الإحصاءات الخاصة بنسبة المتعلمين ، أو بالرجوع إلى مستوى المعيشة فى المجتمع الواحد ، نقول إن مثل هذا الحكم قد يعطينا مرآة صادقة لتلك المجتمعات .

ونحن نميل فى العادة إلى الانتقاص من قيمة « الكم » ، بحجة أنه مجرد « رقم » أصم ، ولكن الحقيقة أن « الكيف »

أيضا كثيرا ما يكمن وراء «الكم» . ! فنسبة المنتحرين فى بلد ما (مثلا) تكشف لنا عن مدى التفكك الاجتماعى السائد فى ذلك المجتمع . وإحصائيات الجرائم المنتشرة فى بلد ما تظهرنا على نوع الأمن الاجتماعى المتوافر فى ذلك البـــلد ، وهلم جرا . وليس من شك فى أن ارتفاع نسبة المتعلمين فى بلد ما من البلاد ظاهرة كيفية ، وليست مجرد ظاهرة كمية . وأنت حين تعالج موضوعا فى عدد كبير من الصفحات فإن احتمال إلمامك بعناصر الموضوع يكون أكبر مما لو عالجته فى صفحتين ! قد تقول لى إن «خير الكلام ما قل ودل» . ولكن من المؤكد أن مجرد الإيجاز لا يعنى فى حد ذاته الاستيفاء . صحيح أن بيتا واحدا من الشعر قد يمثل قصيدة بأكملها ، فى حين قد تخلو الملحمة الشعرية الطويلة من كل طابع فنى . ولكن هذا لا يعنى أن يكون جهد الشاعر فى وضع قصيدة طويلة مجرد عبث لا طائل تحته ! وقد يكون تزايد عدد السكان فى بلد ما من البلدان سببا فى تفتيق حيل الباحثين والتكنيكيين من أجل العثور على موارد جديدة للرزق ! ولماذا لا نقول إن « الكم » نفسه صورة من صور « الكيف » ، ما دام « التغير الكمى » لا بد من أن يؤدى إلى ضرب من « التحول الكيفى » ؟

ألسنا نلاحظ أن تزايد درجة التسخين أو التبريد قد يحيل الماء إلى شىء آخر مختلف تماما ، كالبخار أو الثلج ؟ وإذن فما بالنا نسى أو نتناسى أن « الجهد المتناقص » لا بد بالضرورة من أن يفضى إلى « إنتاج أسوأ » ، وأن « الجهد المتزايد » لابد

بالضرورة من أن يفضى إلى « إنتاج أفضل » ؟ إننا فى حاجة إلى عمل ، وعمل كثير ، ولا بأس من أن نضيف الحبات إلى حبات ، والذرات إلى ذرات : فإن « البحار من قطرات والجبال من ذرات » (كما يقولون) .

... لقد سئل الكاتب الفرنسى الكبير فولتير كيف استطاع أن يصل إلى المجد الأدبى ، فما كان منه سوى أن أجاب بقوله : « لقد كنت أكتب كل يوم صفحة واحدة ، وهذا كل ما فى الأمر » . وقيل للشاعر الألمانى الكبير جوته : «كيف تمكنت من كتابة هذا العدد الضخم من الأعمال الروائية والشعرية ؟.» فكان جوابه : « لقد كنت أعمل بانتظام ست ساعات يوميا ، وكنت أغلق بابى فى وجه الفضوليين الذين لم يكن لهم هم سوى العمل على تعطيلى » . إن عباقرة الإنسانية لم يكونوا — مخلوقات غير عادية — أو — كائنات فوق بشرية — وإنما كانوا أناسا عاديين عرفوا كيف يعملون بانتظام واستمرار ومثابرة . وإذا كان الكثيرون ما يزالون يتحدثون عن أسطورة « العبقرية » فقد آن لنا الأوان اليوم لأن نفهم أن السر الأوحد فى هذه العبقرية المزعومة إنما يكمن فى العمل المتصل أو الجهد المستمر . وليس « النجاح » سوى الحصيلة المتجمعة من إضافة الجهد إلى الجهد ، وتراكم « الكم » فوق « الكم » .

إنك قد تستهين بالجهد القليل ، أو قد لا تعبأ بالعمل الصغير . ولكن خبرة الحياة لن تلبث أن تثبت لك أن الكم القليل يصنع أيضا الكيف الكبير ! أليست العبرة إذن

بالاستمرار . حتى تنضاف الوحدة إلى الوحـدة ، وتتجمع المقادير فوق المقادير ، فيستحيل « الكم » نفسه إلى « كيف » ؟ وبعبارة أخرى ألا يحق لنا أن نقول إن النجاح كثيرا ما يكون مجرد مسألة حسابية ؟ أليس النجاح هو « الواحد » الذى ينضاف إلى الواحد ، فلا يلبث فى النهاية أن يجمع الملايين ؟ ألا ليت الشعوب العربية التى تمثل أكثر من مائة مليون تدرك أن « الكم » أيضا يصنع « الكيف » وأن العبرة بتجمع « الكم » حتى يتكون من تجمعه « الكيف » ، .. إنها حقيقة صغيرة ، ولكنها تستطيع أن تصنع فى حياتنا المعجزة ـ أجل يا أخى العربى . فإن يدك الممدودة إلى يدى ليست مجرد « يد » بل هى « سد » إنها السد الذى يمكن أن يقف فى وجه كل عدوان ، أو هى الحد الفاصل بين عصر الهدم وعصر البنيان .

... إنهم يقولون إن العبرة بالكيف لا بالكم ، ونحن نقول: ـ أجل . ولكن الكيف قد يكون أيضا فى الكم ، وماذا عسى أن يكون الكم هنا إن لم يكن إشارة إلى الجسم والتجمع ؟ إنه الكم ـ المتصل المستمر المتراكم المتجمع الذى لا يكون إلا كالبنيـان المرصوص يشد بعضـه بعضا . إنه « الكم » الملتحم ـ المتسق المتماسك المتوحد الذى لا يمكن للعدو أن يجد ثغرة ينفذ منها إليه .. إنه الكم العربى الكبير الذى نعده ليوم النصر .. وإن غدا لناظره قريب .

.... "والخطأ" أيضاً طريق إلى "الصواب" !

... إن القارىء الذى يطالع هذا العنوان لن يسعه سوى أن يتساءل قائلا : «ولكن ، لماذا لايكون الصواب هو الطريق إلى الصواب ؟ ألسنا نلاحظ فى حياتنا العادية أن النصر يقود الى نصر ، وأن النجاح يفضى إلى نجاح ؟ ألا تدلنا تجربتنا الخاصة على أن المال يجلب المال ، والحظ يجذب الحظ ؟ وإذن فلماذا يأبى كاتب هذه السطور إلا أن يجعل من الخطأ طريقا إلى الصواب ؟». وردنا على هذا التساؤل أن الصواب حقا طريق إلى الصواب : فإنه لا شىء ينجح فى الحياة كالنجاح ، ولا شىء ينتصر فى المعركة كالنصر ! ونحن نعلم جميعا أن مواصلة السير فى طريق سبق للمرء انتهاجه أمر سهل قد لا يحتاج إلى كبير عناء ؛ فليس من المتعذر على الناجح المنتشى بخمرة نجاحه أن يمضى قدما فى طريق النجاح ، وليس من المستحيل على المنتصر الذى رفع النصر من روحه المعنوية أن يشق طريقه بثبات نحو المزيد من الانتصار !

ولكن ، مهلا ! فلو كان النجاح وحده هو الذى يقود إلى

النجاح ، أو لو كان الانتصار وحده هو الذى يقود إلى الانتصار ، لظل الناجح ناجحا على طول الخط ،ولظل الفاشل فاشلا على طول الخط ! ولكن التاريخ قد أظهرنا على أنه كثيرا ما تجيء نشوة الانتصار فتلعب برأس المنتصر ، وعندئذ لا تلبث الهزيمة أن تجيء على أعقاب النصر ، وبذلك يتحقق المثل القائل : الكبرياء تسبق السقوط ! والتجربة أيضا كثيرا ما تجيء فتؤكد لنا أن الفشل نفسه قد يكون أحسن درس يفيد منه الراغب فى النجاح ، على شرط أن يعرف كيف يتخذ من اليأس نفسه سلما يتوصل عن طريقه إلى الأمل !

وهنا قد يقال : « ولكن ، يا عجبا لهذا النجاح الذى لا يتولد إلا عن خصمه اللدود ؟ » هل يمكن أن يتولد الخير عن الشر . أو ان ينبت الأمل من صلب اليأس ؟ فما بالنا نتوهم أن « الخطأ » يمكن أن يكون طريقا إلى الصواب ؟... وردنا على هذا الاعتراض — مرة أخرى — أنه ما دام البشر يحيون فى عالم ناقص يسوده التناقض ، فسيظل الوجود الإنسانى مسرحا خصيبا لهذا التعارض الأليم بين الخير والشر ، بين الصواب والخطأ ، بين النجاح والفشل . وهناك استحالة كبرى فى أن نتصور عالما بشريا قد امحى منه الشر تماما ، وزال منه الخطأ عن بكرة أبيه ، واختفى فيه الفشل اختفاء كاملا مطلقا ! ولو أمكن أن يكون ثمة ضمير إنسانى لم يختبر يوما تجربة الشر ، ولم يعان لحظة واحدة خبرة الفشل ، لما كان ثمة شيء يمكن تسميته باسم « الخير » أو « النجاح » بالنسبة إلى مثل

هذا الضمير ! ومعنى هذا أنه لو استوت فى أعيننا كل ضروب الوجود أو أساليب الحياة ، لما قامت للقيم أية قائمة ، ولما كان ثمة موضع للتفرقة بين خير وشر ، أو صواب وخطأ . وقد تتصور أحيانا إمكان قيام الخير بمقتضى ضرورة صارمة مطلقة ، ولكننا سرعان ما تتحقق من أن « الخير » لا يمكن أن يصبح يوما مجرد قانون من قوانين الطبيعة ، وكأنما هو « واقعة محضة » ليس علينا سوى أن نتقبلها : فإن القيم لا توجد إلا بالقياس إلى الوعى البشرى الذى يقابل بينها ويحكم عليها ويمارس حريته فى قبولها أو رفضها . وبالمثل ، لا يمكن أن يكون الصواب إلا مجرد قطب واحد بين قطبين اثنين تتارجح بينهما الحياة الإنسانية . ألا وهما قطبا الصواب والخطأ ، أو الخير والشر .. إلخ . وما دام من المستحيل أن يمتنع الخطأ تماما من الوجود البشرى ، فلا أقل من أن نحاول اتخاذه سلما إلى الصواب ، حتى يكون الفشل نفسه طريقنا إلى النجاح !

« انا أخطىء فانا اذن موجود ! »

وحين يرجع المرء إلى تاريخ الفلسفة الغربية منذ أكثر من خمسة عشر قرنا ، فإنه يلتقى بعبارة قالها أوغسطين قبل ديكارت بأكثر من عشرة قرون ، ألا وهى : « أنا أخطىء فأنا إذن موجود » ! ومهما كان من أمر المعنى الذى قصد إليه أوغسطين من وراء هذه العبارة ، فإن من المؤكد أن « الخطأ » مظهر من مظاهر « التفكير » ، و « التفكير » علامة من علامات

« الوجــود » . وإذا كان الموتى لا يخطئون ، فذلك لأنهم لا يفكرون ، وهم لا يفكرون لأنهم لا يحيون ! ولكن الخطأ أيضا قرينة من قرائن العمل : لأن الذين يخطئون إنما هم أولئك الذين يعملون . وأما الذين لايعملون فإنهم لايخطئون ، ولكنهم أيضا لا يصيبون ! وإن علماء النفس ليحدثوننا عن جماعة من المرتابين والشكاك ، والمترددين ، يطلقون عليهم اسم « مرضى الفعل » . وهؤلاء يحرصون على الطمأنينة ، ويسعون وراء السكينة ، فهم يرفضون « الفعل » لأنه ينطوى بالضرورة على ضرب من المخاطرة ، وهم يخشون « العمل » لأنهم يخافون أن يؤدى بهم إلى الفشل .. وهكذا نراهم يحذون حذو الحيوانات الصدفية ، فيؤثرون البقاء فى قواقعهم الصلبة الآمنة !

والحق أن « الفعل » ينطوى على ضرب من المخــاطرة ، فليس فى وسع الإنسان أن يعمل ، دون أن يخرج من قوقعته ، ودون أن يتقبــل ما يترتب على فعله من آثار . وحين يخرج الإنسان إلى العالم الخارجى ، فإنه يكون قد آلى على نفسه تقبل ما يترتب على نشاطه من نتائج (سواء أكان ذلك بالنجاح أم الفشل) ، وبالتالى فإنه يكون قد ارتضى لنفسه أن يقترن اسمه بهذا الفعل أو ذاك ! وحتى إذا أخطأ الإنسان ، فإن خطأه لن يجىء إلا بمثابة تأكيد لحدوده ، ولكنه فى الوقت نفسه لن يكون إلا تعبيرا عن وجوده ، لأن من لا يعمل لا يخطىء ، ومن لا يخطىء لا يوجد !

والخطأ تجربة بشرية أصيلة ...

والواقع أن الخطأ تجربة بشرية أصـــيلة : لأنه مظهر من مظاهر نشـــاط ذلك الموجود الناقص الذى لا يملك ســـوى « المحاولة والخطأ » ! وما دام الإنسان أعجز من أن يحصر سلفا كافة الاحتمالات ، فسيظل « العمل » هو محكه الأوحد لاختبار صحة أفكاره والتثبت من صدق فروضه . وإن الإنسان ليحاول ويحاول ، ويخطىء ويخطىء . ولكن لكى يصيب فى النهاية ، أو لكى ينجح فى خاتمة المطاف . والطفل نفسه لا يكاد يخرج عن « قانون المحاولة والخطأ » ، لأنه يشعر ضمنا بأن هذا هو سبيله الأوحد إلى « التعلم » . فنحن جميعا ــ صغارا وكبارا ــ ندرك أن « الخطأ » مرحلة ضرورية لا بد من أن نجتازها فى طريقنا إلى الصواب ، وبالتالى فإننا نفهم تماما أن الفشل خبرة إنسانية أصيلة كثيرا ما تكون بمثابة المرحلة الممهدة لبلوغ النجاح . وكثير من عباقرة الإنسانية يدينون بنجاحهم إلى « خطأ » وقعوا فيه ، أو « عائق » وقف حجرة عثرة يوما فى سبيل تقدمهم ، أو « مشكلة » مستعصية اعترضت طريقهم : وهم يتذكـــرون ــ بسرور ــ ذلك « الخطـــأ » ، أو تلك « المشكلة » ، لأنهم يعلمون حق العلم أنه لولا ذلك « الخطأ السعيد » لما قدر لهم أن يصلوا يوما إلى النجاح ! وليس طريق التعلم طريقا سهلا تحفه الأزاهير والورود ، بل هو طريق شاق تكتنفه أشواك الخطأ والفشل . وقد يكون الخطأ أحيانا هو

الضربة القادحة التى لا بد من أن يدفعها الموجود الناقص حتى يتعلم كيف يصيب ! ولكن الإنسان الذى يخطىء ، يضيف إلى سلسلة خبراته المعاشة تجربة بشرية أصيلة قد تكون هى الكفيلة بتغيير كل مجرى حياته . وهكذا كان شك أوغسطين هو سبيله إلى بلوغ نعمة الإيمان ، وكان ضلال الغزالى هو طريقه إلى معرفة المولى سبحانه .. إلخ .

الصواب الذى يجىء بعد خطأ ..

على أن الصواب الذى يجىء بعد خطأ قد يكون فى بعض الأحيان أقوى وأمتن من الصواب الذى يجىء بعد صواب ! والسبب فى ذلك أن التجارب الشاقة التى تقترن بمثل هـذا الصواب ، لا بد أن تجىء فتزيد من صـلابته ، وتعمل على توطيد أركانه . وهذا هو السر فى أن الإيمان الذى يجىء بعد شك ، قد يكون أحيانا إيمانا راسخا هيهات لأعاصير الشكوك أن تعصف به . وحين يكون « الصواب » الذى يحصل عليه المرء صوابا عسيرا قد دفع ثمنه غاليا ، فإنه لا يمكن أن يكون على استعداد للتخلى عنه بسهولة ، أو هو قد لا يستطيع طوال حياته أن يتجاهله أو أن يتناساه ! ومعنى هذا أن الصواب الذى يجىء بعد خطأ ، لا بد من أن يمثل فى حياتنا النفسية « تجربة أليمة » تستبقيها الذاكرة ، لأنها تعرف أنها قد كلفتنا الكثير ! وكما أن النفس التى عركت الشر ، قد تزداد تمسكا بالخير ، فكذلك النفس التى عانت الخطأ ، قد تكون أقدر على

الدفاع عن الصواب ! ولا غرو . فإن الصواب الذى يجىء بعد خطأ . « حصيلة » متينة قد جاءت بعد طول مشقة ، فهى « ثروة » ثمينة تعتز بها النفس التى خبرت عثرة الخطأ !

. . . .

ليس « الخطأ » هو « الخطأ » ، بل الاستمرار فى الخطأ

إن الكثيرين من بيننا يخشون العمل لأنهم يخافون أن يخطئوا . ولكن ليس الخطأ الحقيقى أن تخطىء ، بل الخطأ الحقيقى أن تستمر فى الخطأ ! وليس بين البشر جميعا ، حتى العباقرة منهم ، من لم تكن حياته سلسلة من المحاولات والأخطاء . ولكن من المؤكد أن عظمة كل فرد منا تقاس أولا وبالذات بمدى قدرته على الإفادة من أخطائه . فالفرد الناجح هو ذلك الذى يعرف كيف يستخلص من خبراته المعاشة عبرا ودروسا . وهو ذلك الذى يزيد من ثراء حياته الروحية عن طريق الإفادة من كل أخطائه وعثراته . وقد لا تختلف الشعوب — من هذه الناحية — عن الأفراد : فإن الشعب الناجح إنما هو ذلك الذى يتخذ من أخطائه وزلاته عبرا حية يتصرف على ضوئها فى المستقبل . ولا يمكن أن تكون حياة الأفراد أو الشعوب سلسلة مستمرة من الأخطاء ، لأنها عندئذ لن تكون إلا محاولات لا تعقبها خبرات ، ومقدمات لا تتلوها نتائج ، وعثرات لا تترتب عليها ثمرات . ولكن الأفراد والشعوب « كائنات عضوية » تلتمس الحياة ، وتنشد التطور ، فهى لا تملك الركون إلى السلبية المحضة ، أو الاستكانة إلى الفشل

المطلق ، ومن ثم فإنها لا بد من أن تجد لنفسها سبيلا للنهوض بعد كبوة ، والقيام بعد عثرة . والفرد الذى ينفض عن نفسه غبار الفشل « شخص ناضج » يعرف أن العيب ليس فى الخطأ ، بل العيب فى مواصلة الخطأ . وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى الشعوب الناضجة : فإنها تعرف أن نصف النجاح هو الاعتراف بالخطأ ، ونصفه الباقى هو العمل على اتخاذ الفشل نفسه سبيلا إلى النجاح .

وما أحرانا اليوم — شعوبا وأفرادا — بأن نعاود التفكير فى مشكلة « الخطأ والصواب » على ضوء فهم واع مستنير لموقف الموجود البشرى ..

إننا بطبيعة الحال بشر ناقصون يحيون على هذا الاستقطاب الحاد الأليم بين الخير والشر : بين الصواب والخطأ : بين النجاح والفشل .

ولكننا أيضا موجودات ناطقة تعــرف أن وجودها هو ما تستطيع أن تصنع من نفسها : وأنه لابد لها من العمل على تجاوز ذاتها وما دامت تجارب الألم والشر والخطأ والفشل مجرد « خبرات موقوتة » لا بد للحرية البشرية من العمل باستمرار على تجاوزها ، فسيبقى « الخطأ » دائمــا مجرد طريق إلى «الصواب» ، وسيظل « الشر » مجرد رحلة عابرة نجتازها فى سبيلنا إلى « الخير » . وليس تاريخ الحضارة البشرية فى جملته

سوى تاريخ الأخطاء التى نجحت الإنسانية فى تصحيحها ، أو تاريخ العقبات التى استطاع الإنسان أن يتغلب عليها . وبين هذه المسافة التى تفصل « الخطأ » عن « الصواب » ، ستظل الحرية البشرية تعمل جاهدة فى سبيل تحقيق ضرب من التوازن بين « الكائن الواقعى » بنقصه وضعفه ، و « الكائن المثالى » بكماله وسموه ..

حربٌ على السذاجة!

من بين آفاتنا الفكرية الشائعة — وما أكثرها — آفة خطيرة تفشت في شتى مناحي حياتنا الذهنية ، وتلك هي آفة السذاجة! ولا أريد أن أضيع وقت القارىء في تعداد النماذج المختلفة لهذه الآفة ، وإنما حسبي أن أطلب إليه استرجاع قصص الكثير من الأفلام العربية التي لا بد أن يكون قد شاهدها — مثلي — فراعه ما فيها من سطحية ، وتفاهة ، وسذاجة ! وليس الفن السينمائي سوى مظهر واحد — بين مظاهر أخرى كثيرة — نستطيع أن نلمس من خلالها ضحالة العقلية التي تأبى لنفسها إلا أن تسخر من عقول الجماهير . وكاتب هذه السطور يتذكر — بكل حسرة وأسى — كم خرج من قاعات السينما ساخطا على منتجي أمثال هذه الأفلام العربية الساذجة ، شاعرا في الوقت نفسه بضرورة العمل على حشد شتى طاقات النقاد ورجالات الفن من أجل شن حرب شعواء على أمثال هذه الأعمال الفنية الساقطة ...

.. ولكن الآفة التي نحن بصددها ليست — مع الأسف —

آفة الفن السينمائى وحده ، بل هى ــ كما قلت ــ آفة مجتمع مازال يخلط بين السذاجة والبراءة ، أو بين السذاجة والبساطة، دون أن يفطن إلى ضرورة التمييز بين هذه المفاهيم المختلفة . فالبراءة قد تعنى طهارة الجسم أو القلب أو النفس ، وتلك سمة روحية أو أخلاقية أو دينية اتسمت بها الروح الشرقية منذ نشأتها ، فلم يكن فى وسع الأديان والشرائع الأخلاقية سوى الاهتمام بالدعوة إليها وحض الناس على التحلى بها . ولكن البراءة تصفية للنفس لا للعقل ، فهى تحرر الفرد من الآثام لا من الأفكار ، وهى نداء يهيب بنا التخلص من شوائب الخطيئة . لا التخلى عن ضرورات الحياة العقلية . ومن هنا فإن بين السذاجة والبراءة من بُعد الشقة قدر ما بين السماوات والأرض ، خصوصا وأن الإنسان البرىء ليس بالضرورة إنسانا ساذجا . وأما البساطة فإنها قد تعنى الوضوح واليسر وعدم التعقيد . وهذه كلها سمات عقلية لا تتفق مطلقا مع السطحية والتفاهة والسذاجة . ونحن نقول فى الفلسفة : إن البسيط هو «غير المركب» أو هو «ما لا يقبل الانقسام» ، ولكننا يندر أن نستخدم لفظ « البسيط » للإشارة إلى « الساذج » أو إلى « السطحى » . وقد يرى بعض الناس فى «البساطة» مظهرا من مظاهر « السذاجة » ، ولكنهم عندئذ لا يستخدمون هذا اللفظ إلا بمعنى واسع غامض ، وكأنهم يعدون « البساطة » مجرد «تساهل فكرى» ، أو مجرد « سهولة » هوجاء تواجه المسائل بخفة ورعونة . وليس من شك فى أن الذين يفهمون من

« البساطة » أمثال هـذه المعانى ، قد لا يجـدون حرجا فى إدراجها تحت باب « السـذاجة » ، وكأنما هم يفكرون فى « بساطة الأطفال » حينما يحاولون فهم معنى « السذاجة » . ولكن الفكر البسيط ليس بالضرورة هو التفكير الساذج : فإن الكثير من الأفكار الفلسفية العميقة لا تزيد عن كونها فى الأصل أفكارا بسيطة واضحة بذاتها . وحسبنا أن نعود إلى ديكارت لكى نفهم معنى « الفكرة البسيطة » وكيف أنها هى الفكرة الواضحة المتمايزة التى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها .

ولو أننا نظرنا إلى الأطفال ، لوجدنا أننا نمتدح سذاجتهم ونعجب بها ، لأننا نشعر أنها سذاجة مخلوقات صغيرة . فهذا مثلا طفل" ينظر من نافذة بيتـه إلى الأشجار الجرداء فى فصـل الشتاء ، فلا يملك سوى التعجب لهذه الظاهرة الطبيعية بأسلوبه الخاص . وعندئذ يصارح والدته بقوله : « عجبا ــ يا أمى ــ لهذه الأشجار : إنها تتعرى فى فصل الشتاء حين يكون البرد قارسا ، ثم تعود فترتدى ملابسها فى فصل الصيف حين يكون الحر القارص » . ! وهذا التعليق الذى لا يخلو من سذاجة يثير لدينا الرغبة فى الضحك ، لأنه تعليق طفل صغير يعقد مقارنة لا موضع لعقدها . وكأنه يرى فى أوراق الشجر مجرد رداء ترتديه الأشجار لمواجهة تقلبات الفصول ! ولو قال شخص بالغ مثل هذه العبارة ، لما أثار لدينا أى إحساس بالفكاهة ، لأنه عندئذ ينطق بعبارة لا معنى لها أو يصدر حكما يقوم على

قياس فاسد . والحق أنه إذا كانت السـذاجة ممدوحة لدى الأطفال ، فإنها مذمومة لدى البالغين . والسبب فى ذلك أن سذاجة الكبار مظهر من مظاهر التخلف العقلى ، فى حين أن سذاجة الصغار هى مجرد عرض من أعراض مرحلة النمو النفسى التى هم بصدد اجتيازها . ولعل هذا هو السبب فى أننا قد نَعُدّ بعض الأنماط السلوكية التى نلتقى بها لدى بعض جماعات الشعوب البدائية أنماطا ساذجة من السلوك ، وكأننا نشبه أصحابها — فى مضمار التطور — بالأطفال الذين لم يتجاوزوا بعد مرحلة بدائية من مراحل نموهم . وقد لا تخلو أمثال هذه الأحكام من شطط علمى ، ولكنها تشهد — على كل حال — بأننا نقرن السذاجة بالمراحل الأولى من حيـاة البشر أفرادا وجماعات اعتقادا منا بأنه لا بد لكل فرد (ولكل شعب) من تجاوز هذه الفترة البدائية من فترات نموه العقلى ، من أجل الانتقال إلى مرحلة أكمل وأنضج من مراحل النمو ..

والحق أن سذاجة الصغار (أفرادا كانوا أم جماعات) شاهد على فقر الحصيلة الفكرية التى يستندون إليها فى مواجهة مواقف الحياة . فالسذاجة تصدّق كل شىء ، وتسلم بكل شىء ، ولا تُعَنِّى نفسها بالخوض فى أى شىء .. الخ . والسذاجة ساذجة لدرجة أنها ترى نتائج بلا مقـدمات ، ومعلولات بلا علل ، وثمرات بلا عمل ، وحلولا بلا مشاكل ! أو ربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول إن السذاجة لا ترى مشكلات على الإطلاق ، بل هى ترى حلولا جاهزة وحقائق واضحة بذاتها!

وربما كان أعجب ما فى السذاجة أنها لا ترى فى الطبيعة والمجتمع سوى « وقائع » تنهض بتفسير ذاتها ، وكأن كل شيء شفاف أمام العقل البشرى ! والحق أن السذاجة لا تعرف « اللف والدوران » فهى لا تدرك معانى الحيلة والدهاء والذكاء . وشتى الأساليب الملتوية فى السلوك . وقد يظن البعض أننا نستدح « السذاجة » حين نصفها بأمثال هذه الصفات . ولكن الواقع أن التقدم البشرى بأسره رهن بهذه الطرق غير المباشرة فى مواجهة مواقف الحياة .. فالذكاء هو الذى يعرف « اللف والدوران » ، وهو الذى يصطنع شتى الأساليب غير المباشرة فى حل مشكلات الحياة ، وهو الذى يصل إلى غايته من خلال الابتكار والتحايل ، وهو الذى يواجه تعقيد الموقف ببناء جهاز محكم من الحلول العقلية المدروسة !

صحيح أن الإنسان كثيرا ما يحن إلى عهد السذاجة ، كما يحن الرجل البالغ إلى عهد الطفولة ،ولكن القطيعة التى تمت بين الإنسان المتحضر والفطرة الأصلية لم تعد تسمح له بمثل هذا النكوص . وآية ذلك أن الإنسان الذى حصل من الخبرات ما حصل . وابتكر من الحيل ما ابتكر ، وابتدع من مناهج البحث ما ابتدع . لم يعد يستطيع اليوم أن يتجاهل كل هذا التراث الحضارى الهائل ، لكى يعاود أساليبه الساذجة فى التفكير والفهم والمعرفة . وهذا هو السبب فى أننا نرى فى صحافة الأمس . وشتى مظاهر إنتاجنا الفكرى المبكر ، ظواهر عتيقة لا تخلو من سذاجة وسطحية ، دون أن يخطر على بالنا

الارتداد إليها أو العمل على إحيائها . وكثيرا ما يعود الفرد الواحد منا إلى إنتاج شبابه ، فيعجب لما كان عليه من سذاجة ، ويبتسم فى سخرية لمعظم ما أنتجه فى تلك الفترة المبكرة من حياته ، وكأنما هو يحس فى قرارة نفسه بضرب من الطمأنينة النفسية لما طرأ على تفكيره من تطور ، تمكن بفضله من تجاوز ذلك العهد البدائى بسذاجته وسطحيته وتفاهته ! وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى الشعوب ، فإنها حين تنظر وراءها . لا ترى فى ماضيها — غالبا — سوى « مرحلة طفولة » قد استطاعت لحسن الحظ أن تتجاوزها ، لأنها عرض من أعراض مرحلة الطفولة التى لا بد للجسم الفردى أو الجماعى من الامتداد إلى ما وراءها . وحين يحلو لبعض الأفراد أن يوقفوا حركة نموهم ، لكى يبقوا «أطفالا كبارا» ، فإنهم عندئذ يقدمون الدليل على رغبتهم فى التمسك بعهد الطفولة ، نظرا لخوفهم من أن يسقط عنهم ذلك المعطف الوقائى الذى كان يحيطهم به آباؤهم فى عهد الصغر ! وربما كان أخشى ما تخشاه السذاجة إنما هو الحرية والمسئولية ، فهى تتذرع ببراءة الطفولة وبساطتها ، خشية أن يكون عليها أن تواجه مصيرها بنفسها ولنفسها ، ببصيرة الشخص البالغ الناضج الحر المسئول !

سذاجة التفكير وسذاجة التقدير

... وحينما يجيل المرء بصره فى أبعاد حياتنا العربية ، فإنه لن يملك سوى الإقرار بأن آفتنا الكبرى هى هذه السذاجة الفكرية التى تشيع فى صحفنا ، وشتى مظاهر إنتاجنا الفكرى . وكثير من الأبحاث التى يكتبها بعض مفكرينا ـ مخلصين ـ دفاعا عن القضية الفلسطينية ، أو قضية الوطن العربى بأكمله ، أبحاث هزيلة لا تخلو ـ مع الأسف ـ من أعراض هذه الآفة الخطيرة . ولا شك أن المواطن العربى الذى يقر معى بسذاجة جانب غير قليل من تفكيرنا ، قد يتفق معى أيضا على سذاجة الجانب الأكبر من تقديرنا .. وليس من شك فى أن سذاجة التقدير وثيقة الصلة بسذاجة التفكير ، ولكن الدوائر التى تمتد إليها سذاجة التقدير قد تكون أوسع فى بعض الأحيان من الدوائر التى يمكن أن تمتد إليها سذاجة التفكير . وحينما يسجل التاريخ ـ فى المستقبل القريب ـ أحداث العالم العربى قبل (وبعد) اليوم الخامس من يونيه (حزيران) ، فإنه لن يعفينا من مسئولية أخطاء جسيمة جلبها على مجتمعنا سوء تقديرنا ! وهل كان « سوء التقدير » سوى مجرد تعبير عن « سذاجة التفكير» لدى أولئك الذين لم يدركوا أن الحرب خدعة، وأن العدو ينادى بالسلام فى الوقت الذى يتأهب فيه للمعركة ؟ ! أجل ، لقد كانت سذاجة ، ولكنها سذاجة كلفتنا الكثير ! إنها سذاجة التفكير والتقدير .

.. حربا على السذاجة !

... أما اليوم ، فلنشنها حربا شعواء على السذاجة فى شتى الميادين ! لنعلن الحرب على سذاجة بعض مفكرينا ، وسذاجة بعض صحافيينا ، وسذاجة بعض المدافعين عن قضايانا ، وسذاجة بعض الأقلام الرخيصة السطحية المبتذلة ! إننا لا نريد أفكارا ضحلة قصيرة النظر ، وعبارات خطابية خاوية المضمون ، بل نريد أفكارا عميقة بعيـــدة النظر ، وعبارات منطقية واضحة المعـــانى .. إننا لا نريد حلولا مرتجلة ساذجة ، ومشروعات خيالية غير قابلة للتحقيق ، بل نريد حلولا مدروسة مخدومة ، ومشروعات عملية ممكنة التحقق . لقد قاسينا الكثير من جراء سذاجة التفكير والتقـــدير ، فما أحرانا بأن نطالب مفكرينا بدراسات علمية متأنية ، وأبحاث هادئة متعمقة .

وليس الشعب العربى الذى أنتج هذه الحضارة الإنسانية الكبرى شعبا ساذجا لا يملك من أدوات التحليل والتقييم ما يستطيع معه مواجهة الموقف الحالى ، بل هو شعب ناضج يستطيع أن يثبت للعالم مرة أخرى أنه قدير على النهوض من كبوته ، والتغلب على كل أسباب النكسة التى ألمت به . وليست « السذاجة » التى ابتلينا بها فى الأعوام الأخيرة سوى مجرد عرض زائل من أعراض ذلك « المرض الاجتماعى » الذى لن يلبث الجسم العربى القوى أن ينتصر على جرثومته .

ليس بالشعر وحده يحيا الإنسان !

ليس أمعن فى السخف من تلك المقارنات السطحية المبتذلة التى طالما اعتاد الناس عقدها بين الفن والعلم ، أو بين الشعر والتكنية ، أو بين القيم الروحية والقيم المادية ، وكأن الفن لا يقوم إلا على أنقاض العلم ، أو كأن الشعر لا يزدهر إلا على حساب التكنية ، أو كأن القيم الروحية لا ترتفع إلا على أشلاء القيم المادية ! وحينما قال المرحوم أمين الريحانى : « أنا الشرق عندى فلسفات ، ولكن ليس عندى دبابات» ، فإنه كان يظن أن الفلسفة وقف على الشرق ، وأن التقدم الصناعى الذى ارتفعت رايته فى بلدان الغرب لن يعرف طريقه إلى الشرق ! ولكن الواقع شاهد على أن المجتمعات التى قطعت أشواطا بعيدة المدى فى مضمار التقدم الصناعى والتكنية العلمية ، لم تتخل عن الأدب والشعر والموسيقى وغيرها من ضروب الفن ، لمجرد أنها قد أصبحت دولا صناعية تحيا فى عصر التكنية العلمية . وبالمثل ، يمكننا أن نقول إن الدول المتخلفة التى لم تصل بعد إلى المستوى التكنولوجى المنشود ، لم تستطع أن تسبق غيرها من الدول الصناعية فى مضمار الترقى

الفنى . لمجرد أنها لم تصبح بعد دولا صناعية تكنيكية ! والحق أن هذه المفاضلة المزعومة بين الفن والعلم لا تزيد عن كونها مجرد أسطورة اخترعتها بعض العقول الحالمة التى ظن أصحابها أن السر فى تأخر الشرق أنه قد ظل يحيا فى عصر الفن ، فى حين أن الغرب قد تقدم عليه فأصبح يحيا فى عصر العلم ! ولكن حسبنا أن نعود إلى الحضارات قديما وحديثا ، لكى نتحقق من أنه هيهات لأى مجتمع بشرى أن يحيا بلا فن ، اللهم إلا إذا قدر لهذا المجتمع أن يهبط بنفسه إلى المستوى الحيوانى الصرف ، ولكنه عندئذ لن يكون إلا جوا خانقا هيهات لأية كائنات بشرية أن تتنفس فيه ، وبالتالى فإنه لن يكون «مجتمعا» على الإطلاق !

هل من تعارض بين « القيم المادية » و « القيم الروحية » ؟

ولنتوقف – على سبيل المثال – عند تلك التفرقة التقليدية التى اعتاد الكثيرون إقامتها بين قيم مادية وأخرى روحية ، لندرك الدلالة الحقيقية لهذه التفرقة . فالناس عندنا يعلون فى العادة من شأن القيم الروحية ، ويندددون بدعاة القيم المادية ، فضلا عن أنهم كثيرا ما يذهبون إلى أن السر فى انحلال الكثير من المجتمعات هو غلبة القيم المادية على القيم الروحية فى أمثال هـذه المجتمعات . ومن هنا فقد أصبح المفكر الذى ينادى بضرورة إشباع الحاجات المادية للأفراد – فى نظر الكثيرين – مجرد مفكر مادى يريد أن يهبط بالإنسان إلى مستوى

الحيوان ! ولكن الواقع أن ترقى قدرات الفرد النفسية والجسمية مشروط برفع المستوى المادى لجميع أفراد الجماعة . فليس الجهاد فى سبيل تحقيق ظروف مادية ملائمة سوى مجرد شرط ضرورى لإشباع سائر حاجات الإنسان الأخرى ، بما فيها حاجاته الروحية . ومعنى هذا أنه لا بد لنا من العمل على تجاوز مرحلة الصراع فى سبيل إشباع بعض الحاجات المادية الصرفة . من أجل الانتقال إلى مرحلة الصراع فى سبيل إشباع حاجات إنسانية رفيعة . وليس من شك فى أن الإنسان الجائع الذى لايتوافر لديه أقل قسط من الاكتفاء المادى ، إنما هو بالضرورة أعجز الناس عن ممارسة أى مظهر من مظاهر النشاط الروحى . وقد لانكون مغالين إذا قلنا إن المناداة بضرورة الاهتمام بمعالجة مشكلات الإنسان المادية والاقتصادية قبل غيرها من المشكلات هى فى صميمها دعوة ذات هدف معنوى صرف : إذ هى ترمى إلى تحرير الإنسان من أسر الاهتمام المفرط بضرورات الحياة اليومية ، وهو الاهتمام الذى يقضى على كل احتمال لسمو الإنسان ، أو سعيه إلى تحقيق أهدافه الروحية . ومهما كان من أمر تلك المفاضلات التى اعتاد بعض كتابنا إقامتها بين الشبع والحرية ، أو بين خطاب المعدات وخطاب العقول ، أو بين الحاجات الحيوانية الصرفة والغايات الإنسانية العليا ، فإن من المؤكد أن افتقار الإنسان إلى ضرورات الحياة الإنسانية هو المسئول فى كثير من الأحيان عن تحلله من القيم الروحية ، وانصرافه عن المبادىء الأخلاقية . وليس يكفى

أن نقول إنه هيهات لإنسان جائع أن يعـــرف معنى الكرامة الإنسانية ، أو أن يدرك جدوى التسامى الأخلاقى ، بل لا بد من أن نضيف إلى ذلك أيضا أنه لا قيام لأية حياة روحية إلا فى كنف مجتمع متكامل متوازن لا تستعبده ضرورات الحياة المادية . وإذن فليعلم دعاة القيم الروحية أنه لا رقى لإنسان جائع ، ولا حرية لمخلوق مريض هزيل يحيا صريعا لذلك الاهتمام المفرط بضرورات الحياة اليومية الأساسية .

والفن نفسه ، أليس هو « قيمة روحية » ؟

ولو أننا نظرنا الآن إلى النشاط الفنى نفسه ، لوجدنا أن رقيه حليف الازدهار الحضـــارى . فليست الفنون « نباتات شيطانية » تنمو من تلقاء نفسها ، وكأننا هنا بإزاء نتائج لم تترتب على أية مقدمات ، وإنما الفنون « ظواهر حضارية » لا تنبت إلا فى البيئات المواتية والظروف الملائمة . ومن هنا فإن النشاط الفنى يستلزم ــ فى كثير من الأحيان ــ ازدهار الحياة المادية ، وتحسن الأوضاع الاقتصادية ، خصوصا وأن اهتمام الإنسان بالحياة الجمالية لا يجىء فى العادة إلا بعد أن يكون قد كفل لنفسه أسباب الحياة المادية الكريمة . ومعنى هذا أن الإنسان الذى يفكر فى المتعة الجمالية إنسان قد تحرر من أسر المنفعة ، وتخلص من قبضـــة الاهتمام المفرط بضرورات الحياة المادية ، فأصبح فى استطاعته أن يتذوق «الجمال» ، بدلا

من الاقتصار على البحث عن المنفعة . وليس من شك فى أن المجتمعات التى أصبحت فيها السلع القبيحة لا تلقى من يبتاعها إنما هى المجتمعات المتحضرة التى حلت فيها « القيم الجمالية » محل « القيم النفعية » . ومن الواضح أن مثل هــذا التقدم الجمالى مشروط بترقى أذواق الأفراد ، وتزايد درجة حساسيتهم الفنية ، مما يدفع بالأفراد إلى البحث عن « الكماليات » ، بدلا من الوقوف عند التماس « الضروريات » . وليس من شك فى أن تذوق الناس للأدب الرفيع ، والموسيقى الممتازة ، واللوحات الفنية الرائعــة ، والأعمال المسرحية الراقية ، وغير ذلك من مظاهر «الفن الحديث» ، إنما هو مظهر من مظاهر قدرة الإنسان المعاصر على تجاوز القيم المادية الصرفة ، من أجل الاهتمام ببعض القيم الروحية الإنسانية . وهل كان النشاط الفنى يوما سوى مظهــر من مظاهر إبداع ذلك الموجــود الحرّ الذى لا يستطيع أن يظل على المســتوى البيولوجى الصرف ، لأنه لا يستطيع أن يكون إنسانا ، إلا إذا كان أكثر من « حيوان » ، بل أكثر من مجرد إنسان ؟

ليس بالخبز وحده يحيا الانسان !

بيد أن المغالاة فى التعلق بالفن قد تدفع بالفنان أو المتذوق ــ فى بعض الأحيان ــ إلى القول بأن « كل أساطيل العــالم الجوية لا يمكن أن تعادل بيتا واحدا من الشعر نجح صاحبه

فى التعبير عن سورة الطيران بلغة الفن الأصيل الرفيع » ! ومثل هذا القول إن دل على شىء فإنما يدل على أنه حينما تأخذ النزعة الجمالية المتطرفة بمجامع قلب الفنان ، فإنها قد تدفع به إلى الظن بأن « الجمال » يمكن أن يكون هو قوته اليومى ! وعندئذ يجىء الشعر فينقل الفنان إلى عوالم خيالية من الأحلام والأوهام والتهاويل التى قد تبدو له أروع من الواقع نفسه ؛ فيصبح « الحلم » عنده أعز من « الحقيقة » ، ويصير « الخيال » فى نظره أجمل من « الواقع » ! وحين يصيح الفنان قائلا : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » ، فإنه يعلن بذلك أن الشعر قد أصبح قوته اليومى ، وكأنما هو قد نجح نهائيا فى تجاوز ضرورات الحياة المادية اليومية ، أو كأنما هو قد أصبح موجودا أثيرياً يمكن أن يحلّق فوق عالمنا المادى الكثيف ! وليس الخطأ فى أن يحيا الإنسان للفن ، بل الخطأ فى أن ينسى أو يتناسى أنه يحيا أيضـــا من الفـــن ! فالمجتمع هو الذى يفسح المجـــال أمام الفنانين ، وهو الذى يرحب بإنتـــاجهم ويعمل على توفير أســـباب الحيـــاة لهم . وإذا كان المجتمع قد يسمح للفنان بتجاهل الواقع أو العمـــل على تجاوزه ، فما ذلك إلا لأنه يعرف أن ثمة قوى اجتماعية أخرى لا بد من أن ترده إلى حظيرة الواقع ! ومن هنا فإن الفنان الذى يعلن أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ، لن يلبث أن يتحقق أيضا من أنه ليس بالشعر وحده يحيا الإنسان ! وآية ذلك أن الشعر حين ينقله إلى عوالم من الخيال ، واللهو الحر . واللاواقعية

الصرفة ـ شأنه فى ذلك شأن سائر الأعمال الفنية الأخرى التى تمتد بالفنانين إلى أجواء حرة من الإبداع الجمالى الخالص ـ فإنه قد يقطع أواصر القربى بينه وبين الواقع ، أو قد يحقق ضربا من القطيعة بينه وبين الحقيقة الخارجية ...

ويخيل إلىّ أننا نحن ــ فى شرقنا العربى ــ قد عشنا أمدا طويلا من الزمن على الأخيلة الجميلة ، والتهاويل البراقة ، والعواطف الصاخبة ، والمشاعر الحالمة ، حتى لقد أصبح شبابنا يريد تحرير الأراضى المغتصبة بالشعر ... يريد غزو الفضاء بالشعر .. إلخ ، إلخ . ولكن أين العلم ؟ لماذا لا نطل قليلا على العالم وحضارة الشعوب المتقدمة ؟ لماذا لا نتحرر من كابوس العاطفة والآهات ؟ لا أحسب أننا حين نقول هذه الكلمات ، ندعو إلى التخلى نهائيا عن كتابة الشعر ، أو ندعو إلى حبس المواهب الفنية ــ كما قد يقع فى ظن البعض .

ولا ريب أن المواطن العربى الذى عاش النكسة الأخيرة ، قد استشعر ــ فى لوعة وحرقة ــ أن الكلمات التى طالما تغنّى بها شعراؤنا عن الأمجاد والبطولات والانتصارات ، لم تعُد سوى ألفاظ هامدة لا تحمل معنى ولا تنطوى على دلالة . وحين ارتفعت أصوات البعض ــ على أثر الهزيمة ــ معلنة أنه « كفانا شعراً » ، فما أحسب أنهم كانوا يعنون بذلك أنه لم تعد ثمة حاجة إلى الشعراء والأدباء ورجالات الكلمة فى عالم « ما بعد النكسة » ، وإنما كل ما هنالك أنهم قد أدركوا حقيقة أمر تلك « العبارات الحالمة » التى طالما خدّرت عقولنا

وأسكرت أحلامنا ، قبل اليـوم الخامس من شـهر يونيه (حزيران) سنة ١٩٦٧

والحق أن أحداً لا يستطيع أن ينكر دور « الكلمة » في معركتنا النضالية الحالية ، فما كان لمجتمع يريد أن ينهض على بكرة أبيه لاسترجاع أراضيه واسترداد كرامته ، أن يتنامى دور « التوعية القومية » فى عملية حشد الطاقات الجسمية والمعنوية لمواجهة قوى العدو المادية والروحية . ولكن الخطأ الأكبر الذى قد يقع فيه الإنسان العربى هو أن يتوهم أن « الكلمة وحدها » هى الكفيلة بكسب المعركة ، أو أن « الشعر » وحده هو السبيل إلى استرجاع الكرامة الضائعة ! فليس الخطأ فى أن ننظم « الشعر » ، بل الخطأ فى أن نواجه قصف المدافع بترجيع أنغام القصائد ! ... إننا نريد اليوم — للشعب العربى الأبى — أن يكتب قصيدة بطولته بدماء أبنـائه ، على أديم الأرض العـربية المغتصبة . واثقين من أن هـذه القصيدة — وحدها — ستكون أروع ما خطته اليد العربية !

الخوف لا يصنع الرجال !

إن قال لك أحد إنه لا يخاف شيئا ، ولا يرهب أحدا ، فاعلم أنه ضحية لأخطر نوع من أنواع الخوف : ألا وهو الخوف من مجابهة الواقع ، ومواجهة الحقيقة ! وحسبنا أن نمعن النظر إلى الحياة النفسية ، لكى نتحقق من أن الخوف انفعال طبيعى ، مثله فى ذلك كمثل الغضب ، أو السرور ، أو التعاطف ، أو الحب ، أو غير ذلك من الانفعالات . صحيح أن بعض علماء النفس الأقدمين كانوا يتحدثون عن غريزة خوف ، ولكن علم النفس الحديث قد أثبت أنه ليس هناك غرائز ، بل هناك ميول فطرية تقبل التعديل والتحويل والإبدال والإعلاء .. إلخ . فليس ثمة غريزة محددة جامدة متصلبة يمكن أن نسمّيها باسم « غريزة الخوف » ، بل هناك وظيفة نفسية يضطلع بها الخوف فى حياة الموجود البشرى ، وتلك هى حماية الذات الفردية ضد أخطار العالم الخارجى ، وتهديدات الآخرين ، وكل ما قد يكون من شأنه أن يتهدد سلامة الإنسان. فالخوف انفعال طبيعى يقوم بدور حيوى هام فى صميم الحياة النفسية للكائن البشرى .

ونحن نعلم أن الطفل يخاف ، ونعلم أيضاً أن حياة الرجل البدائى تكاد تقوم فى معظمها على الخوف ، ولكننا قد نميل إلى الظن بأن الرجل الناضج البالغ لا يخاف ! والواقع يشهد — على العكس من ذلك — بأننا جميعا نخاف : فنحن نخاف الموت ، ونخشى المستقبل ، ونرهب الحياة . ونجزع من الشيخوخة ، حتى لقد زعم بعض الباحثين أن حياة الإنسان تكاد تكون سلسلة من المخاوف المستمرة ! وليس من شك عندنا فى أن « الخوف » قطب هام من أقطاب الحياة الإنسانية ، ولكنه قطب سلبى ينبغى أن يقابله ذلك القطب الإيجابى الهام الذى اعتاد علماء النفس أن يطلقوا عليه اسم « الشعور بالأمن » Security . ولو قُدِّر لأى موجود بشرى أن يعدم تماما كل إحساس بالأمن أو الطمأنينة . لكانت حياته نهبا للمخاوف أو المخاطر ، ومثل هذه الحياة إنما هى الموت قبل الموت ! ولم يقل علماء النفس بضرورة بقاء الأم إلى جوار ابنها ، خلال سنوات الطفولة المبكرة ، إلا لأنهم لاحظوا أن فى ابتعادها عن طفلها تهديدا خطيرا لشعوره بالأمن . والواقع أن الطفل فى حاجة ماسة إلى الشعور بالأمن . لأن هذا الشعور هو السياج الضرورى الذى ينبغى أن تُحاط به حياته النفسية، خصوصا فى السنوات الخمس الأولى من عمره . والإنسان البالغ هو الآخر فى حاجة أيضا إلى الشعور بالأمن ، لأنه هيهات لإنسان مُهدَّد ممزق تستبد به المخاوف ، أن يكون كائنا متكاملا متوازنا يمكن الركون إليه أو الاعتماد عليه ...

ولكن ، لا بد لنا بادىء ذى بدء من التفرقة بين نوعين من المخاوف : مخاوف سوية Normal نلتقى بها لدى العاديين من الناس ، كالخوف من المجهول ، والخوف من المستقبل ، والخوف من الخطر ، والخوف من المرض ... إلخ ، ومخاوف مرضية : Morbid لا نلتقى بها إلا لدى الشواذ أو المنحرفين أو العصابيين من الناس ، كالخوف من الغرباء ، والخوف من النساء ، والخوف من المجتمع ، والخوف من العمل ، والخوف من المسئولية ... إلخ . وقد يكون من الطبيعى للجنس الواحد أن يتردد قبل الإقدام على الاختلاط بالجنس الآخر ، ولكن هذا التردد قد يستحيل إلى خوف مرضى حينما يصبح الشاب عاجزا تماما عن تحقيق أى ضرب من ضروب الاتصال بالفتاة ، أو حينما تصبح الفتاة غير قادرة أصلا على غشيان مجتمع مختلط من الرجال والنساء ! وليس هناك أدنى غرابة فى أن يخشى المرء المرض ، وأن يحاول الابتعاد بنفسه عن مواطن العدوى ، ولكن الغرابة فى أن يغسل شخص يديه بعد كل مقابلة يصافح فيها شخصا آخر! وفى مثل هذه الحالة يستحيل الخوف من المرض إلى مرض نفسانى قد يصح أن نسميه باسم « مرض النظافة » وليس من الشذوذ فى شىء أن يتروى المرء قبل الإقدام على أى تصميم خطير ، ولكن الشذوذ أن يجىء التردد فيشـل الإرادة تماما ، وأن يستحيل الحـذر إلى خوف دائم من المسئولية ، وعجز تام عن العمل ! وهكذا نرى أن المخاوف المرضية هى فى معظم الأحوال أعراض تصاحب العديد من

الأمراض النفسية : لأنها أعراض شاذة تولدها مؤثرات وهمية ، أو منبهات غير واقعية . فالطفل الذى اعتاد فى صباه الخوف من الظلام ، أو الذى نشأ فى بيئة إرهابية تقوم التربية فيها على التخويف ، أو الذى تكونت شخصيته فى كنف نظام تربوى صارم لم يمارس فيه المعلمون سوى سياسة العقاب ؛ نقول إن مثل هذا الطفل قد يكون معرضا — أكثر من غيره — للوقوع تحت طائلة المرض النفسانى . وليس من شك فى أن الخوف حليف القلق : فإن الطفل الذى نشأ على الخوف لا يمكن أن يكون طفلا آمنا ، وبالتالى فإنه سرعان ما يقع صريعا لشتى ضروب القلق . وحين يعرف الطفل أن الصراحة قد تكلفه الكثير ، فإن خوفه من الكبار ، وجزعه من العقاب ، قد يؤديان به إلى الكذب والخداع والتضليل . ومن هنا فقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن الخوف أيضا حليف الكذب : لأن الطفل الخائف — كما نعلم — لا بد من أن يجد نفسه مضطرا إلى اصطناع أساليب الخداع ، والمداورة ، والتحايل ، وشتى ضروب الكذب . وربما كان أخطر نظام تربوى يمكن أن ينشأ فى أحضانه أى جيل من الأجيال ، هو ذلك النظام الإرهابى الذى يعتاد فيه الأطفال أساليب العنف ، فلا يجدون بدا من الاستجابة لها بشتى مظاهر الخوف ، وعندئذ تنعدم الثقة بين الصغار والكبار ، ويفقد الطفل كل إحساس بالأمن ، وتستحيل الحياة الاجتماعية إلى جو إرهابى قوامه التوجس والتخوف !

ولو أننا انتقلنا الآن إلى الحياة السياسية ، لوجدنا أن

التنظيم السياسى السليم لا يمكن أن يقوم على دعامة من الإرهاب والتخويف ، أو القمع والزدع . صحيح أن المجتمعات قد تحتاج ـ فى بعض مراحل تطورها ـ إلى أنظمة صارمة تقرن الحزم بالشدة ، ولكن من المؤكد أن سياسة العنف وحدها لا يمكن أن تحقق لأى مجتمع ما يصبو إليه من استقرار ، وهدوء ، وترق ، ونمو مطرد .. وإذا كانت التجارب قد دلتنا على أن تزايد قسوة القوانين الجنائية ليس من شأنه بالضرورة أن يضع حدا لانتشار الجرائم ، أو أن يقلل من نسبة حدوثها ؛ فربما كان فى استطاعتنا أيضا أن نلاحظ أن تزايد شدة التنظيمات السياسية ، لا يؤدى بالضرورة إلى استتباب الأمن ، ولا يقود حتما إلى المزيد من الاستقرار السياسى . وليس فى استطاعة أى حاكم ـ كائنا من كان ـ أن يؤلف بين قلوب الناس من حوله عن طريق الخوف : لأن الخوف لم يكن فى أى يوم من الأيام ركيزة متينة يمكن أن يركن إليها أى نظام من الأنظمة السياسية الصالحة ...

وحسبنا أن نلقى نظرة على المجتمعات الاستبدادية ـ قديماً وحديثاً ـ لكى نتحقق من أن المواطنين فى أمثال هذه المجتمعات لا يستطيعون أن يحيوا إلا فى جزع مستمر : فهم يخشون الحاكم ، ويتوجسون خيفة بعضهم من البعض الآخر ، ويتجسس البعض منهم على البعض الآخر ، ولا يكاد الواحد منهم يطمئن على مصيره أو مصير أولاده ! ولا شك أن أمثال هذه المجتمعات الاستبدادية لا يمكن أن تفسح مجالا للحرية

الرأى أو حرية التفكير ، أو حرية التعبير ، فليس فى وسع مفكريها وكتابها وحملة الأقلام فيها سوى أن يفرضوا على أنفسهم رقابة ذاتية صارمة ، قوامها الخوف ، والتوجس ، والحذر ، والحيطة . ولا شك أن المواطن الضعيف الذى نشأ فى مجتمع إرهابى قوامه العنف والخوف ، لا يمكن أن يكون مواطنا شجاعا حرا ، لأنه لا يملك إلا أن يكون بوقا تافها يصيح ولا يبين ، وينطق ولا يفصح ! وكما أن الطفل الذى نشأ على الخوف لا يمكن أن يكون إلا طفلا جبانا عاجزا تماما عن مواجهة مقتضيات الموقف ، فإن المواطن الذى يحيا فى مجتمع قوامه الإرهاب ، لا يمكن أن يكون أيضا إلا مواطنا جبانا عاجزا تماما عن تحمل أية مسئولية . والواقع أنه لا نجاح لمجتمع يحيا أفراده على الخوف ، وتقوم العلاقات بين أفراده على التوجس، وتنعدم فيه كل ثقة بين الحاكم والمحكومين .. وليست أنظمة العدالة الاجتماعية التى تعمل المجتمعات الحديثة جاهدة فى سبيل توطيد دعائمها سوى مجرد ضمانات تحاول أن تكفل عن طريقها للمواطن أكبر قسط ممكن من الإحساس بالأمن . . ولا غرو ، فإن الشعور بالأمن هو بلا نزاع صمام الأمن فى كل جهاز اجتماعى ، بحيث أنه إذا انعدم هذا الشعور من نفوس الأفراد ، فلا بد لكيان المجتمع كله من أن ينهار !!

على أننا لو أنعمنا النظر الآن إلى عالمنا المعاصر ، لأدركنا أنه لم يعد يقتصر فى تربيته للأجيال الجديدة على بث روح الأمن والطمأنينة فى نفوس النشء من أبنائه ، بل هو قد أصبح

يحرص اليوم على تزويدهم أيضا بروح المخاطرة . وليست هذه الأعداد المتزايدة يوما بعد يوم من رواد الفضاء سوى نموذج واحد ــ من بين نماذج أخرى عديدة ــ لهذا الجيل المخاطر الذى أخذت بوادره تظهر فى الآفاق . وقد تكون هناك أسباب كثيرة لما تجتاح العالم اليــوم من اضطرابات فى الأوساط الجامعية . ولكن من المؤكد أن من بين العوامل الهامة التى تدفع بالشبيبة إلى التمرد ، رغبة الجيل الحاضر فى التحرر من أسر السلطة التى يفرضها عليه الجيل الماضى . وكأنما هو قد أصبح يعتقد بأنه لا خلاص لمجتمع المستقبل ، اللهم إلا بانتزاع روح الخوف من أبناء الجيل الجديد ! والظاهر أن الشبيبة المعــاصرة هى أحرص ما تكون اليوم على إثبــات حقهــا فى الوجود ، فهى تسعى جاهدة فى سبيل العمل على التخلص من الأيدى التى كانت تقودها ، والمخــاطرة بنفسها على الدرب الجديد الذى أصبحت تريد لنفسها أن تنهجه . وإن شــباب العالم الحديث ليس على استعداد لتقبل أى نظام تربوى أو اجتماعى أو سياسى قد يحمل فى طواياه آثار التسلط !

ونحن ــ فى مجتمعنا العــربى الكبير ــ نشهد حركات الشبيبة فى أرجاء العالم الغربى ، فلا نملك سوى التطلع إلى ذلك اليوم العظيم الذى تقوم فيه لدينا أجيال متزنة واعية ناضجة من الشباب الحر الشجاع الجرىء . أجل ، فما أحوجنا اليوم إلى شباب ثائر يبنى لأمته مجتمعا يقوم على الأمن ،والثقة ، والعدالة . فقد آن الأوان اليوم لأن نفكر فى تربية أجيال جديدة

لا تحيا على الخوف . ولا تبنى أسلوب حياتها على الكذب ، ولا تقيم علاقاتها الاجتماعية على الرياء ! صحيح أن مجتمعنا العربى الكبير مثقل برواسب الاستعمار والفساد السياسى والظلم الاجتماعى . ولكن من المؤكد أن كل جهد نبذله اليوم فى سبيل القضاء على أسباب الخوف ، ومحو آثاره من نفوس الناس ، لن يكون إلا خطوة كبيرة يخطوها مجتمعنا على درب الحرية . فلنحاول إذن أن نقتلع جذور الخوف من قلوب الشباب ، ولنذكّر أبناءنا دائما بأن الخوف لا يصنع الرجال : ويقينى أنه يوم ننجح فى إحلال روح الثقة محل روح الخوف فى نفوس الشباب ، ويوم تتمكن من إشاعة جو من الأمن والطمأنينة والمحبة الصحيحة فى أرجاء وطننا العربى ، فإننا سنكون عندئذ قد قطعنا شوطا غير قليل على طريق « الجهاد الأكبر » ...

الكذابون !

لست أدرى لماذا يطيب لى ـ الآن ـ أن أدعوك يا قارئى العزيز إلى القيام معى بجولة سريعة فى عالم الكذابين ! ربما كان السبب فى ذلك أنها جولة طريفة قد نئوب منها بالكثير من العبر والعظات . خصوصا وأن عالم الكذابين عندنا عالم خصب عامر بالطرائف والأعاجيب !

اولا : ((مرضى الكذب)) !

ولنتوقف أولا عند « مرضى الكذب » ... إنهم أناس مساكين لا يملكون إلا أن يقولوا الكذب ، لأن الحدود الفاصلة بين الحقيقة والوهم . أو بين الواقع والخيال ، قد امحت تماما لديهم ! وأهل هـذا النوع من الكذب عاجـزون عن رؤية الحقيقة . لأنهم يحيون فى عوالم وهمـية مليئة بالتهـاويل والأخيلة . فهم لا يشهدون الأحداث بعيونهم ، ولا يسمعون الحقائق بآذانهم . بل هم يرون كل شىء بمخيلتهم التى لا ضابط لها ، ويسمعون كل شىء من خلال أهوائهم التى لا زمام لها ! وإذا كان « مرضى الكذب » يكذبون ، دون أن يفطنوا إلى

أنهم يكذبون . فذلك لأنهم صرعى لمرض نفسى لا يدرون من أمره شيئا ! وربما كانت السمة الأساسية التى تميز « مرضى الكذب » أنهم أناس شــواذ لم يستطيعوا أن يحققوا أى « تكيف » بينهم وبين « الواقع » : فهم عديمو التكامل . مفتقرون تماما إلى كل «توافق» . و « الكذب » الذى يحتمون به ، ويلجأون إليه ، لايخرج عن كونه قوقعة هشة يحيون فى داخلها ، حتى لا تمتد إليهم ضربات الواقع ! وقد يكون الدافع الأصلى الذى حدا بهؤلاء المرضى إلى اصطناع أسلوب الكذب فى كل حياتهم النفسية أنهم لم يلقوا فى نعومة أظفارهم من الثقة والأمن ، والحدب والرعاية ، ما يشجعهم على مواجهة الواقع ، فكان أن ارتدوا إلى عوالمهم الذاتية الضيقة ، دون أن يحاولوا تحقيق أى توافق بين وجودهم الشخصى ومجتمعهم الخارجى . وليس من شك فى أن عجز الإنسان عن مواجهة الواقع ، كثيرا ما يؤدى به إلى الارتماء فى أحضان الخيال . وعندئذ لا يلبث أسلوب حياته أن يصبح أسلوبا مرضيا يقوم على الوهم ، والخداع ، والكذب ، والإختلاق ... وليس من السهل على ضحايا هذا النوع من الكذب ، أن يعودوا إلى عالم الواقع ، لكى يروا الحقائق بعيون رؤوسهم ، وإنما لا بد لهم من علاج نفسانى طويل ، قبل أن يتمكنوا من التغلب على أوهامهم وأخيلتهم ، من أجــل مجابهة الواقع ، ومواجهــه الحقيقة ، دون الخلط بين عالم الواقع وعالم الخيال ...

ثانيا : كذب المبالغة والتهويل !

ولو أننا أطلقنا على هذا النوع الأول من الكذب اسم كذب التغيير أو التبديل : « Alteration » ، (على أساس أنه يقوم على تبديل الواقع تماما) ، لكان فى وسعنا الآن أن ننتقل إلى نوع آخر من الكذب قد يصح لنا أن نسميه باسم كذب المبالغة او التهويل « Exaggeration » . وأهل هذا النوع الثانى من الكذب ليسوا مرضى أو عُصَابيين ، ولكنهم ضحية لنوع خاص من التربية ، يقوم على استثارة العواطف ، ويستند إلى المبالغة فى الانفعالات . وإذا كانت مجتمعاتنا العربية حافلة بأهل هذاالنوع من الكذب . فذلك لأن التربية التى سادت عندنا أمدا طويلا من الزمن ، لم تكن سوى تربية عاطفية تنمى لدى النشء روح المبالغة والإغراق والشطط والسرف ، ولا تكاد توفر له أى نضج عاطفى يقوم على الاتزان والاعتدال والتكامل وضبط النفس . ومن هنا فإن الذى ينتظرك خمس دقائق ، يقول لك إنه قد انتظرك ساعات وساعات ، والذى يشهد طائرة واحدة فى السماء ، يعلن على الملأ أنه شاهد السماء مكسوة بالألوف من الطائرات ، وهلم جرا .. !

والظاهر أن هذه السمة الأخلاقية قد انعكست أيضا على صحافتنا العربية ، فلم يعد فى استطاعة أى صحفى ــ عندنا ــ أن يسوق الخبر كما هو ، بل أصبح يرى أن واجبه الصحفى يقضى عليه بأن يحيطه بهالة مُخْتَلَقة من المبالغات والتهاويل ،

حتى يجتذب إليه أنظار النـــاس وأسماعهم . ولعل هــذا هو السبب فى أننا لم نعد نصدق الكثير مما ترويه لنا الصحف ، وأصبحنا نقتصر على القول بأنه : مجرد « كلام جرايد » !! وليس أدل على انتشار هذاالنوع من الكذب فى مجتمعاتنا العربية ، من إقبالنا على نوع خاص من الفكاهة ألا وهى « فكاهة الفَشْــر » . فالنــاس عنــدنا يرحِّبون بالنكات القائمة على المبالغة والتهويل ، لأنهم يشعرون بأنها تمثل فكاهة طريفة ، تصور جانبا من جوانب أخلاق الكثيرين فى بيئتنا العربية الحافلة بالمفارقات والمتناقضات ! وقد لا يكون من الغرابة فى شىء أن تنتشر عندنا أكاذيب المبالغة والتهويل ، فإن العقلية التى لا تعرف الدقة ، ولا تحرص على التزام حــدود الواقع ، لا يمكن أن تكون إلا عقلية انفعالية اندفاعية ، وبالتالى فإنها لا بد من أن تصبح عاجزة عن « تصــوير الحقيقة كما هى » . ولا شك أن ثمة عوامل نفسية أخرى قد تجىء فتدفع بالفرد إلى الارتماء فى أحضان هذا النوع من الكذب ، كالغرور والكبرياء ، وحب العظمة ، والميل إلى الافتخار ، وغير ذلك من العواطف الكاذبة التى طالما عملت بيئاتنا العربية على تثبيتها فى نفوس الناس ! ولا بد من أن تكون لدى القارىء أمثلة عديدة لهذا النوع من الكذب : فإنه لا بد من أن يكون قد التقى — مثلى — بالكثير من النماذج البشرية التى تجعل « من الحبة قبة » كما يقول المثل العامى ! وأما فى دنيا النساء ،

فلعل كذب المبالغة والتهويل ، أن يكون من قبيل الحديث المعاد الذى لا حاجة بنا إلى الافاضة فى شرحه .

ثالثا : كذب التزييف أو التضليل

وأما أخطر جماعة من جماعات الكذابين (وعندنا منهم — مع الأسف — الكثير) ، فهى جماعة المخادعين والمنافقين والمرائين والمصفقين والهتافين والمنتفعين وغيرهم ممن يندرج كذبهم تحت باب « التزييف أو التضليل » « Falsification ». ونحن نعرف أن الأصل فى هذا النوع من الكذب إنما هو الخوف : فإن التربية التى تقوم على الإرهاب والتخويف هى التي تخلق فى الأمة الواحدة أجيالا من المنافقين ، والكذابين ، والمرائين ، وأهل الزيف الفكرى . ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن الطفل الذى يكذب كثيرا ما يصدر فى كذبه عن الخوف من العقاب ، فالكذب وثيق الصلة بالخوف ، والكذابون هم — فى الكثير من الحالات — أناس جبناء لا يتمتعون بأية شجاعة أدبية ، ولا يملكون أى قسط من الصراحة . وحسبنا أن نعود إلى المعاملات العادية السائدة بين الناس عندنا ، لكى نتحقق من أنها كثيرا ما تقوم على النفاق والرياء والمجاملات الزائفة ، حتى لقد أصبحت النميمة والاغتياب والوشاية وغيرها من الرذائل المذمومة أساليب عادية من أساليب السلوك عندنا .

والحق أننا قد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن الجانب الأكبر من حياتنا العامة قد أصبح يقوم اليوم على الكذب : وربما كان

أعجب ما فى الأمر أن بعض كبار أصحاب المناصب يعلمون تمام العلم أن المديح الذى يكيله لهم بعض أتبـاعهم من المرائين والمنافقين لا يزيد عن كونه مجرد نفاق رخيص ، ولكنهم — مع ذلك — يرتاحون لسماع هذا المديح الزائف ، ونحن لا ننكر أن « النفاق الاجتماعى » قد وُجِدَ فى كل زمان ومكان ، ولكننا نميل إلى الظن بأنه قد لا يتوافر لأى مجتمع سياسى من جماعات المنافقين والمخـادعين ، والمصفقين ، والمنتفعين قدر ما يتوافر لمجتمعنا العربى !

ولا أريد أن أفيض الحديث فى وصـف جماعات مزيّفى الحقائق ، وواضعى الأقنعة على الوجوه ، وبائعى الضمائر فى سوق المصالح ، وحارقى البخور لجميع الأصـنام ، وإنما حسبى أن أقول إن المجتمع العربى كله فى أمسّ الحاجة إلى حياة سياسية نظيفة ، وتنظيم اجتماعى سليم ، حتى تصبح علاقاتنا الفردية والاجتماعيـة قائمة على الصراحة والشجاعة الأدبية ، وحتى تعود إلى النـاس ثقتهم بأنفسهم واطمئنانهم بعضهم إلى بعض .

رابعا : كذب الأفـّاكين من أهل التبرير !

وثمة فئة رابعة من فئات الكذّابين تجمعها بالفئة السابقة وشائج قـوية ، وتلك هى فئة الإفـّاكين من أرباب الكلام المعسول والمنطق المزيف . وأهل هـذا النوع من الكذب قد سخّروا أنفسهم لخدمة أصحاب المطامع ، فهم على استعداد تام

للدفاع عن قضاياهم ، والتماس الحجج لتبرير أعمالهم ، على شرط أن يحظوا منهم بالأجر المطلوب ! ومن هنا فقد يصح أن نسمى كذبهم باسم « كذب التبرير أو التعليل » ، وهو كذب بارع يحتاج إلى الكثير من المهارة المنطقية ، والسفسطة اللفظية، ومن ثم فإن أصحابه هم فى العادة من حملة الأقلام ورجالات الفكر . ولا بد من أن يكون القارىء قد لاحظ معنا أن هذا النوع من الكذب قد استشرى عندنا على أعقاب النكبة ، و « التبرير » : « Rationalization » عملية نفسية تقوم على التماس الحجج المنطقية لتعليل أحداث أو أقوال أو تصرفات هى فى حد ذاتها غير قابلة للتفسير العقلى . وكثيرا ما يكون أهل هـذا النوع من الكذب حواة بارعين قد درسـوا عواطف الجماهير ، وعرفوا سيكولوجية الجماعات ، فهم يعرفون كيف يصلون إلى أهـدافهم من خلال الكلمات المنمقة والعبارات المعسولة .. إلخ . وقد لا يجد هؤلاء أدنى حرج فى السكوت عن بعض الحقائق ، أو إخفاء بعض الوقائع ، على شرط أن يكون فى هذا الصمت أو فى ذلك الإخفاء ما قد يكون من شأنه خدمة للقضايا التى يدافعون عنها .

واخيرا : الكذابون ــ جميعا ــ اناس ضعفاء !

ولا يحسبن القارىء أن هذه ــ وحدها ــ هى كل فئات الكذابين : فإن هناك ــ بلا شك ــ أنماطا أخرى من الكذب ، وجماعات أخرى من الكذابين ، ولكن حسبنا أن نكون قد

وضعنا بين يدى القارىء الكريم صورة سريعة لأنماط أربعة من الكذب : ألا وهى كذب التغيير أو التبديل ، وكذب المبالغة أو التهويل ، وكذب التزييف أو التضليل ، وأخيرا كذب التبرير أو التعليل . والذى لا شك فيه ــ عندنا ــ أن كل هذه الأنماط المختلفة من الكذب إنما هى مظاهر ضعف نفسانى : لأن الإنسان القوى لا يشعر بأدنى حاجة إلى تشويه الحقائق أو اختلاق المعاذير أو اختراع الأكاذيب ! فالكذابون ، سواء أكانوا مرضى نفسانيين ، أم حالمين واهمين ، أم مرائين منافقين ، أم دجالين أفاقين ، إنما هم فى الحقيقة أناس ضعفاء لم يكتمل نضجهم النفسانى ، فهم ضحايا التربية السيئة ، والبيئة الفاسدة ، والتنظيم الاجتماعى المفكك . ولن يتسنى لنا علاج تلك الآفة الخطيرة التى تهدد مجتمعاتنا ، ألا وهى آفة الكذب ، اللهم إلا إذا نجحنا فى القضاء على أسباب الخوف ، واقتلاع جذور النفاق الاجتماعى ، وإقامة حياة اجتماعية سليمة يكون رائدها الصدق والصراحة ، وتكون دعامتها الثقة المتبادلة والتعاون الحقيقى .

التربية بين "التقليد" و"التجديد"

ليست « التربية » بالموضوع الذى يستأثر بدراسته علماء النفس أو المربّون أو رجال الاجتماع ، وإنما هى أيضا بحث هام يُعْنَى بدراسته الفلاسفة والأخلاقيون وغيرهم من المهتمين بدراسة الظواهر البشرية . وإن هؤلاء جميعا ليشتركون فى النظر إلى « التربية » بوصفها وسيلة فعّالة لتطوير شخصية الطفل وإعداده لحياة الجماعة ، حتى يكون فى المستقبل مواطنا صالحا ينفع نفسه ويخدم أمته ، ولكنهم يختلفون فى « وجهة النظر » التى ينظرون منها إلى « الظاهرة التربوية » . فعلماء النفس مثلا يبحثون فى مراحل التعلّم وطرق اكتساب المهارات وقياس الذكاء ووسائل ترقية الشخصية ، فى حين يقصر علماء الاجتماع جهودهم على دراسة التربية بوصفها عملية « تطبيع اجتماعىّ » أو « تنشئة اجتماعية » ، مع اهتمامهم فى الوقت نفسه بالبحث فى العلاقة بين التربية والثقافة ، والخوض فى شتى « العمليات الاجتماعية » المتولّدة عن « التفاعل الديناميكى » الذى يتم بين الفرد والمجتمع ... إلخ . وأما الفلاسفة فإنهم يهتمون على الخصوص بدراسة الغايات العليا

للتربية ، فيحاولون أن يقدموا لنا فلسفة تربوية تعكس نظراتهم العامة إلى الوجود . ومذاهبهم الأخلاقية فى الحكم على الحياة .

ولو أننا تصفحنا أى كتاب فلسفى فى التربية ، لوجدنا أن نظرة أى فيلسوف إلى التربية لا تكاد تنفصـــل عن مذهبه الميتافيزيقى العام . وهذا ما نجده مثلا عند سائر الفلاســفة المعاصرين ممن خاضوا فى التربية ، مثل چون ديوى ، وبرتراند رسل ، وألفرد نورث هويتهد ، ووليم أرنست هوكنج وغيرهم .

ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن نظرة فيلسوف مثالى إلى التربية لا بد من أن تجىء مخالفة تماما لنظرة فيلسوف مادى « ماركس مثلا » إلى هذا الموضوع ، فإنه لمن المؤكد أن كلا منهما إنما يعكس فى آرائه التربوية فهمه الخاص لمعنى الحياة ، ودور الوجود البشرى فيها ، وعلاقة الفرد بالمجتمع الذى يعيش فيه ، والغاية القصوى للاجتماع البشرى .. إلخ . ومن هنا فقـد ذهب بعض علماء التربيـة أنفسهم إلى أنه لا موضع للفصل بين « فلسفة التربية » و « فلسفة الحياة » . لأن الأولى منهما إن هى إلا صورة مصغرة للأخرى . ولما كانت « التربية » فى صميمها إنما هى محاولة تهدف إلى تعليم الفرد كيف يعيش ، فإنه لمن الواضح أننا حينما نربى النشء ، فإننا إنما نلقنه فلســفة معينة فى الحياة . والفلاســفة هم أولئك المربون الذين يرون أنه لا بد من أن تكون هـذه الفلسفة واضحة المعالم محددة الخطوط ، حتى يكون توجيهنا للأفراد قائما على أسس واعية بينة ، ودعائم نقدية صريحة .

فإذا ما تساءلنا الآن عن تعريف « التربيـــة » ، وجدنا أن كثيرا من علماء الاجتماع يميلون إلى القول بأنها « عملية حضارية نحوّل عن طريقها المولود البشرى الناقص إلى عضو سليم فى مجتمع بشرىّ معيَّن » . وربما كانت الميزة الأولى لهذا التعريف هى أنه يظهرنا على أن التربية ليست ســوى الحياة الشاملة للجماعة نفسها ، منظورا إليها من زاوية خاصة ألا وهى زاوية تعلّم الفرد لهذا الأسلوب الجماعى فى المعيشة . ومن هنا فقد ذهب آخرون فى تعريفهم للتربية إلى أنها العملية التى تحاول المجتمعات عن طريقهــا أن تكفل لنفسها أسباب البقاء ، محاولة فى الوقت نفسه أن تضمن لنفسها ضربا من « التجديد » الذى تدخــل عن طريقه شيئا من التعديل على أساليب حياتها . ولعلّ هذا هو ما عناه الفيلسوف الأمريكى المعاصر « هوكنج » حينما كتب يقول : « إن الهدف الذى ترمى إليه التربية هو أن تنشر بين الأفراد طرازا اجتماعيا معينا ، مع حرصها فى الآن نفسه على أن تضمن لهم ســبل الترقى والتسامى فوق هذا الطراز » . والواقع أنه إذا كان من مهمة « التربية » أن تنقل إلى الأجيال الناشئة تراث المجتمع الثقافى ، فإن من واجبها أيضــا أن تخلق بين أفراد الجماعة شخصيات مبتكرة مجدّدة تستطيع أن تضطلع بتبعات «التغيير الاجتماعى». ومعنى هذا أن للتربية وظيفة مزدوجة : وظيفة تقليدية محافظة هى فى صميمها عبارة عن نقل للتراث الحضارىّ من جيل إلى آخر ، ووظيفة نقدية مجددة هى فى جوهرها بمثابة تجاوز

بالماضي وعلو ّ على الأجيال البائدة . ولا شك أنه إذا كان كل مجتمع هو في حاجة إلى الاستقرار والاستتباب والتوازن ، فإن كل مجتمع أيضا هو في حاجة إلى التجديد والابتكار والأصالة . وتبعا لذلك فإن مهمة التربية لا تقف عند حد ّ نشر المعايير الجماعية والقيم التقليدية ، بل هي لا بد ّ من أن تمتد أيضا إلى خلق روح النقد والابتكار في نفوس أبناء الجيل الجديد .

حقا إنه لمن الصعوبة بمكان أن نوفق بين الحاجة إلى الاتباع والتقليد والمسايرة ، والحاجة إلى النقد والابتكار والمبادأة ، ولكن من المؤكد أن الفهم الصحيح لمهمة التربية إنما هو ذلك الذي يقوم على المزج بين الحاجتين بحسب ما تدعو إليه الضرورة في كل مجتمع من المجتمعات . وحين يتناسى المربون أن الوظيفة الحيوية الأولى للتربية إنما هي تسليم الثقافة إلى رجال المستقبل الذين هم ورثتها الشرعيون ، فإن مهمة المفكرين والفلاسفة عندئذ لا بد ّ من أن تنحصر في العمل على تذكير الجيل الجديد بمعايير جماعته ولباب تراثه الحضاري وثمار قيمها الروحية ... إلخ . وأما حينما يغلب على المجتمع طابع ُ التقليد والمحافظة والاتباع ، فهنالك تكون مهمة أهل الفكر أن يعملوا بكل ما لديهم من قوة على تفتيح أذهان النشء لما ينتظره من معارف جديدة ، وآفاق مجهولة ، وإمكانيات بعيدة المدى ... وهكذا تقع على الفلاسفة تبعة المساهمة في رسم السياسة العامة للتربية ، فلا تقتصر مهمتهم على البحث في الأغراض العامة للتربية ، بل يكون عليهم أيضا

أن يكيفوا فلسفاتهم التربوية مع مقتضيات العصر ومستلزمات البيئة ، خصوصا إذا كانوا يعيشون فى كنف مجتمعات يسودها الاضطراب والقلق ، كما هو الحال فى كثير من مجتمعاتنا العربية فى هذه الأوقات بالذات .

والواقع أن لكل مجتمع من الأنظمة التربوية ما يلائم درجة تطوره ومستوى معيشته وطبيعة تراثه الحضارى . فضلا عن أن هذه الأنظمة لتتنوع وتتغير فى نطاق المجتمع الواحد تبعاً لما يطرأ عليه من تقدم أو انتكاس . وقد أظهرنا علم التربية المقارن على أن لكل مجتمع مثله العليا ، وأنظمته الثقافية الخاصة ، وطرقه المحددة فى تشجيع النشء على التحصيل ، وأساليبه الخاصة فى صقل الخلق.. إلخ . وتبعاً لذلك فإن السياسة التربوية التى ينتهجها كل مجتمع لا بد أن يطرأ عليها بين الحين والآخر شيء من التغير ، نظرا لما يصيب المجتمع نفسه من تغير . وعلى الرغم من أن مهمة تسجيل مثل هذه التغيرات إنما تقع على عاتق مؤرخ التربية ، إلا أن فى وسع الفيلسوف أن يحاول الوقوف على طبيعة التيارات الفكرية التى تعمل عملها فى صميم المجتمع من خلال تلك التغيرات التربوية نفسها . وإن الفيلسوف ليعرف أنه ليس أشق على المربى من أن يقف فى وجه التيار ، ومن ثم فإنه حريص على أن يذكر القائمين على شؤون التربية بأنه ليس أمعن فى الخطأ من أن يحاولوا فرض مجموعة من المعتقدات الجامدة الميتة على عقول تلاميذهم ، وكأنما هم يريدون أن يصبوا أذهان المستقبل فى قوالب الماضى . وما دمنا

نعلّم أبناءنا لأنفسهم ، لا لأنفسنا نحن ، فليس عليهم من حرج إذا هم طلعوا علينا فى الغد بالجديد الذى يناقض ما علّمناهم ويعارض ما حاولنا فرضه عليهم ! أليس أقصى ما يتمناه المعلّم أن يخرّج أساتذة لا تلاميذ ، ورجالا لا أطفالا ؟ إذن فطوبى للتلميذ إذا استطاع يوماً أن يكون أفضل من معلّمه ! وطوبى للمعلم إذا نجح فى أن يكون يوما مجرّد تلميذ لتلميذه !

إن كثيرين من الأساتذة الجامعيين أنفسهم ليضيقون ذرعا بالنقد ، فتراهم يصرّون على أن يحترم الطلبة آراءهم ، وكأنما هى عقائد أورثوذكسية هيهات لأحد أن يشذ عنها أو أن يخرج عليها ، وبالتالى فإننا نلاحظ أن تلاميذهم يقتصرون على ترديد تلك الآراء دون فحص أو مناقشة أو نقد أو مجرّد دراسة ... وحتى فى مجال التعليم الفلسفى ، كثيراً ما نجد أساتذة كباراً يقصرون كل همهم على بث عقائدهم الفلسفية فى نفوس تلاميذهم ، دون أن يفطنوا إلى أن « مهمة معلّم الفلسفة لا تنحصر فى تعليم تلاميذه مجموعة من الأفكار ، وإنما هى تنحصر فى تعليمهم كيف يفكرون . » . فليس دور الأستاذ الجامعىّ فى محيط التربية أن يَكْسب لنفسه أتباعا وأشياعاً ، وإنما الدور الذى ينبغى أن يضطلع به هنا هو أن يخلق أساتذة يفكرون لحسابهم الخاص ، ويعيدون وضع المشكلات ، لكى يعمدوا إلى حلّها بأساليب فكرية جديدة . وإننى لأذكر حين كنت طالباً أننى حاولت يوماً أن أنتقد رأياً أدلى به أحد الأساتذة ، فما كان منه سوى أن ابتدرنى بقوله : « وهل أنت

فقيه" يا بنىّ حتى تشرِّع ! » ، ولم أكن بطبيعة الحال أحاول أن أشرِّع ، وإنما كنت أناقش فكرة كانت ــ ولا تزال ــ فى رأيى تقبل المناقشة ، ولكنها كانت فى نظر أستاذنا فكرة مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لمجرّد أنها كانت فكرته هو !

وقد يخطر على بال أحدهم أحيانا أن يتصدّى لنقد عمل أدبى أو إنتاج فنى ، فلا نلبث أن نصدّه بقولنا : « إن النقد سهل ، وأما الفن فهو عسير . » ولكننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن لدينا من الفنانين أكثر مما لدينا من النقاد ، وأننا قد نكون أحوج إلى نقاد منا إلى فنانين . هــذا إلى أن العبقرية قد تستنزف من الجهود فى إبداع أعمالها الفنية أقل مما يستنزفه أحيانا بعض النقاد فى تفتيح عيون الناس وأذهانهم حتى يفهموا ! فليس من الصحيح أن النقد أيسر دائماً من الفن ، بل الصحيح أن النقد هو الذى يربى لدى الجمهور ملكة الإعجاب . وهو الذى يصقل ما لديهم من قدرة على التذوّق . وهكذا تقع على النقاد مهمة إمداد الشعب بآذان جديدة لسماع الموسيقى الجديدة . وعيون جديدة لرؤية تلك الأشياء البعيدة التى تلوح فى الأفق ، ووعى جديد لإدراك تلك الحقائق التى ظلت صامتة حتى هذه اللحظة .

لقد كان جيتو Guyau يقول إن الرغبة فى التحكم فى العقول لهى أسوأ بكثير من الرغبة فى التحكم فى الجسوم ، فليس أجدر بنا من أن نتحامى أولئك الذين يريدون أن يفرضوا

أنفسهم علينا ، أو أن يجعلوا من أنفسهم موجّهين لأفكارنا وقادة لضمائرنا ... ونحن نقول إن مهمة المربّي اليوم لم تعد قاصرة على تلقين بعض المعلومات أو تعليم بعض المبادىء ، وإنما هي قد أصبحت مهمة خلق وتجديد قوامها اعتراف المربّي منذ البداية بأنه لا يمتلك وحده كل الحقيقة ! فليحاول المربون عندنا إذن أن يدفعوا بتلاميذهم إلى البحث دائماً ، بدلا من أن يركنوا إلى الراحة والهدوء ، مكتفين بأن يرسلوا الصرخة العالية قائلين : « لقد وجدنا ، لقد وجدنا ! » آجل ، إن هؤلاء هم الشجعان الذين يواصلون السير والتقدم ، حين يتوقف غيرهم ويركن إلى الدعة والخمود ، فالمستقبل لهم وحدهم ، وفي أيديهم يقع مستقبل الإنسانية جمعاء في العصور المقبلة !

فهل نكتفي بأن نجعل من التربية أداة للابتكار والتجديد ، متناسين دورها في الحيـــاة الاجتماعية بوصفها أداة محافظة وتقليد ؟ هذا ما لم يخطر لنا على بال ، فإننا نعرف أن قطب التجديد لا يقوم إلا جنباً إلى جنب مع قطب التقليد ، لأن الاثنين هما كواجهتَيْ العُملة . ولكننا أردنا فقط أن نذكّر المربين بأن عليهم أن ينقشوا في أذهان تلاميذهم عبارة « جيد » حين يقول : « إن ما كان في استطاعة غيرك أن يفعله ، لا تفعله ، وما كان في استطاعة غيرك أن يقوله ، لا تَقُلْه ... بل حاول دائماً أن تخلق في نفسك ، بكل صبر وأناة ، ذلك الموجود الفريد الذي هيهات لغيره أن يقوم بديلا منه » !

اعمل : فالعمل خلق للذات بالذات

من منا لم يثقل كاهله العمل يوما ، فتمنى لو خلت حياته تماما من كل جهد شاق ؟ من منا لم يضق ذرعا — فى لحظة ما من لحظات حياته — بأعباء الحياة وتكاليفها ، فود لو تمكن يوما من الاستغناء عن كل عمل مضن ؟ ... لقد روت لنا التوراة أن الله حين طرد آدم من الجنة صرخ فى وجهه قائلا : « بعرق جبينك تأكل خبزك » ! ومنذ ذلك الحين ، أصبح « العمل » ضريبة فادحة تثقل كاهل الإنسان ، ونقمة بغيضة ينوء بأعبائها نسل آدم ! وما يزال الكثيرون — حتى يومنا هذا — يجدون فى « العمل » شرا لا بد منه ، وينظرون إليه على أنه عبء يودون لو استطاعوا التحرر منه !... إنهم يبغضون « العمل » ، لأنهم يبذلون فى أدائه جهدا ، ويلقون أثناء القيام به نصبا .

وكم من أناس يسخطون على الحياة ، لا لشىء إلا لأنها مشروطة بالعمل ، متوقفة على الجهد . وإذا كان من الحماقة البالغة — كما قال كارلايل Carlyle — أن نلعن الشمس لأنها لا تشعل لنا لفائف التبغ حين نريد منها ذلك ، فقد يكون من

السخافة بمكان أيضا أن نتمرد على الحياة لمجرد أنها لا تنزل دائما عند رغباتنا ، ولا تحقق لنا باستمرار كل أحلامنا ! ومع ذلك ، فلنتصور حياتنا وقد خلت تماما من كل المشكلات التى تتطلب الحل ، وامحت منهـا شتى الصعوبات التى تستلزم المواجهة ، وارتفعت عنها سائر المعضلات التى تحتـاج إلى المعالجة ، وانعدمت فيها كل المخاطر التى تحفزنا إلى المجاهدة .. لنتصور حياتنا على هذا النحو ، ولنتساءل بعد ذلك عن نوع السعادة التى يمكن أن تتوافر للإنسان فى مثل هذه الظروف : هل تكون مثل هذه الحياة حيـاة سعيدة ترتاح إليهـا نفس الإنسان ، ويقنع بها عقله ، ويطمئن إليها قلبه ؟ ألن تكون هذه الحياة ــ على وجه التحديد ــ مجرد حياة رتيبة مملة ، تخلو تماما من كل قيمة ، ولا تحقق لصاحبها أدنى سعادة ؟

الدلالة الميتافيزيقية للعمل البشرى ..

لقد اهتم بعض الروائيين بوصف « الآلام » التى تقترن بالكثير من « الحرف » ، فوضع بين أيدينا الروائى الفرنسى المعاصر بيير هامب Pierre Hamp ، صــورة صادقة مؤثرة للمشقات الكثيرة التى يعانيها بعض أصحاب الحرف اليدوية ، فى روايته المسماة باسم «آلام البشر» La Peine Des Hommes وليس فى وسع أحد أن ينكر ما فى حياة « أهل الطبقة الكادحة » من أعمال شاقة ، وجهود مضنية ، وإرهاق بالغ ، حتى لقد

أصبح « العمل » عنــدهم علما على الأعصاب المكدودة ، والأوصال المنهكة ، والنفوس المتعبة . ولعل هذا ما حدا ببعض المصلحين الاجتماعيين إلى المناداة بتحسين حال العمال ، وتقليل ساعات العمل ، ورفع مستوى حياة الطبقة العــاملة . وبالغ بعضهم فى وصف « مساوىء العمل » ، فقام رسل Russell يدعو إلى تمجيد الكسل ، وراح ينادى بتوفير المزيد من أوقات الفراغ للإنســان المعاصر ، بينما ذهب آخرون إلى ضرورة التخفيف من حدة متاعب الإنسان ، بإحلال « الآلة » محل « العامل » ، واستخدام « القوى الذرية » أو « الإلكترونية » بدلا من « الطاقات البشرية » أو « الأيدى العاملة » . وهذه كلها صيحات اجتماعية عادلة ، ودعوات إصــلاحية سليمة ، ولكنها تستند فى الحقيقة إلى نظرات فلسفية قاصرة ، وأحكام عقلية ناقصة . وآية ذلك أنه ليس ثمة « عمل » يمكن أن يعد « شرا خالصا » : ما دام من شأن كل عمل أن يقترن بنشاط إيجابى نغير فيه من أنفسنا ، ونخلع فيه طابعنا على العــالم الخارجى . فنشعر بشىء من « اللذة » أو « المتعة » أو « الغبطة الروحية » . وإن الأعمال لتختلف من حيث درجة « الخلق » أو « الإبداع » التى تجىء معها ، ولكن من المؤكد أنها جميعا مظاهر حية لسيطرة الإنسان على العالم ، وقدرته على صبغه بالصبغة الإنسانية . وقد درجت الأسطورة اليونانية على تصوير سيزيف Sisyphe بصورة « الإنسان التعس » ، وتصــوير بروميثيوس Prometheus بصورة « الإنسان المتمرد » ولكن

ليس ما يمنعنا من أن نتخيل الواحد منهما والآخر على قدر من السعادة فى صميم جهده العابث ، أو تمرده الساخط !

والحق أن فى استطاعتنا أن نعرف الإنسان بقولنا : « إنه الموجود القادر على العمل » . وإذا كانت « القدرة على العمل » هى « القدرة على خلق أثر متحقق يكون صنيعة يد الإنسان » ، فليس بدعا أن تقترن هذه القدرة بشىء من الغبطة أو السعادة . والعمـــل يفترض أن كلا من الإنسان والعـــالم ، أو الذات والموضوع ، ليس حقيقة مكتملة ، أو شيئا جاهزا معدا من ذى قبل ، بل هو حقيقة مرنة تلتمس التحقق ، أو شيئا ناقصا لا بد من العمل على استكماله . وقد كان فلاسفة العصـــور الوسطى يقولون إن للعمل مهمة مزدوجة : لأنه لا بد للعامل من أن يحقق شيئا من جهة ، كما أنه لا بد له من أن يصنع ذاته (حين يعمل) من جهة أخرى . فالعمل ينصب على الطبيعة ويتجه نحو العالم الخارجى من جهة ، ولكنه يرتد إلى الإنســـان وينعكس على الفرد نفسه من جهة أخرى . ولا بد للعامل من أن يجد نفسه مضطرا إلى الخضوع لشريعة العمل ، أو النزول على حكم الشىء المصنوع أو الأثر المتحقق نفسه . والسبب فى ذلك أن « العمل » يلزمنا بالموضـــوعية ، ويضطرنا إلى « نسيان الذات » ، ما دام المهم فى « الإنتاج » هو « الناتج » نفسه ، لا نية الفاعل ، أو أخلاقياته . ومن هنا فإننا نستشير الطبيب الماهر ، ونتعامل مع الصانع الممتاز ، ونرقّى الموظف الكفء ، بغض النظر عن ميوله السياسية ، أو اتجاهاته الحزبية ،

أو مذهبه الديني ، أعني لمجرد أنه يتقن عمله ، ويجيد حرفته ، ويقوم بأداء واجبه على الوجه الأكمل . ولعل هـذا ما حدا بالفنان الفرنسي الكبير رودان Rodin إلى تمجيد « العمل الجيد » أو « الصناعة المتقنة » باعتبارها صورة من صـور « الفن » .

هل يكون « العمل الفني » أعلى صورة من صور « العمـل » البشري ؟

ونحن حين نتحدث عن « الفن » فإنما نتحدث عن ثالوث موحد يضم الفكر ، واليـد ، والأداة . وقد كان ليوناردو دافنشي Leonardo de Vinci يقول عن « التصـوير » إنه « شيء ذهني » « Cosa Mentale » ، ولكنه لم يكن يعني بذلك أن الفن صورة من صور الفكر المحض ، أو أنه لا ينطوي على أي نشاط يدوي ، بل كان يشير إلى اختلاف عمل الفنان عن الجهد الحرفي المحض ، وكان يفرق بين « الفنان المبدع » و « الصانع المقلد » . وقد يبدو لنا ـ بادئ ذي بدء ـ أن الفنانين عقول هائلة تكشف عن أسرار الطبيعة ، أو قلوب كبيرة عامرة بأعمق المشاعر الإنسانية ، ولكن الفنانين في الحقيقة هم أولا وقبل كل شيء أناس يملكون « أيديا » ، ويعرفون كيف يفكرون بأيديهم ! ولما كان من شأن الخيال أن يتبدد سريعا ، كما أن من شـأن حركات الفكر والوجدان أن تكون عابرة

سريعة الزوال : فليس بدعا أن تكون اليد هى وسيلة الفنان إلى استبقاء تلك الأطياف الشاردة ، وتزويدها بالصورة التى تضمن لها البقاء . وقد يستطيع الإنسان الذى يسترسل فى أحلامه أن يشهد الملايين من الرؤى الجميلة والأشكال الرائعة ، ولكنه لو اقتصر على « الحلم » وحده ، لما استطاع أن يستبقى تلك الصور ، أو أن يخلع عليها أى ثبات . ولا غرو ، فإن الفارق بين « الحلم » و « الحقيقة » ، ان الإنسان الحالم لا يستطيع أن يستحدث أى فن ، نظرا لأن يديه غارقتان فى وسن عميق ، فى حين أن الإنسان الفنان هو ذلك الذى يعرف كيف يستخدم يديه فى تجسيد هذه الأحلام ، وتثبيت تلك الرؤى !

والواقع أن يد الفنان ليست مجرد أداة خلق وإبداع ، بل هى أيضا أداة مخاطرة ومعرفة . وكما كان الإنسان الأول يشق طريقه عبر الأشياء فى تعثر وتردد ، فإن الفنان أيضا لا يكاد يكف عن رؤية الأشياء ولمسها فى تساؤل وتعجب . ولكن الفنان لا يسائل المادة إلا باستعمال يديه : لأنه يلمس الأشياء ويتحسسها ، ويستطلع أشكالها ، ويستكشف مدى مرونتها ، ويتعرف على طبيعة تكوينها ، ويستعير من لغة اللمس لغته البصرية التى يستخدمها فى تصوير تلك الأشياء . ومن هنا فإن موقف اليد من الفكر لا يمكن أن يكون موقف العبودية السلبية ، بل لا بد للاثنين من أن يتعاونا سويا على تصوير « العمل الفنى » وتنفيذه دون أن يكون « الفكر » هو الذى « يأمر » ، و « اليد » هى التى « تأتمر » . وهذا ما يعنيه بعض

علماء الجمال حينما يقولون إن اليد نفسها ذكاء ، وإحساس ، وإلهام ، أو هي على الأصح أداة عاقلة ، حساسة ، ملهمة ! وكثيرا ما يقال عن بعض الفنانين الممتازين ، أو بعض الصناع المهرة ، إنهم يملكون ذكاء في أطراف أصابعهم ! ومعنى هذا أن الفنان إنسان موهوب يفكر بيديه ، وكأنه يحمل « عقلا » في أطراف أصابعه . ونحن نعرف قيمة اللمسات الأخيرة في أي عمل فني ، ولكننا قد لا نتصور أن يكون لليد بيانها وفصاحتها ، إن لم نقل شعرها وسحرها ! وحسبنا أن نمعن النظر إلى ألاعيب الفكر واليد لدى فنان مثل بيكاسو Picasso ، (على نحو ما قدمها لنا مخرج الفيلم الذي صوره لنا أثناء قيامه بعمله) ، لكي نتحقق من أن هناك تآزرا عجيبا يتم بين « اليد » و « الفكر » ، لدى كبار الفنانين ، فيجعل من « العمل الفني » إبداعا حقيقيا يشهد بسيطرة الإنسان على الطبيعة . وكثيرا ما تجيء « الأداة » ، فتزيد من سيطرة « اليد » على المادة ، وتساعد « الفكر » على خلق « العمل الجيد » ، وبذلك يجيء الفن مصداقا لتضافر « الفكر » ، و « اليد » و « الأداة » ، على تحقيق « الإنتاج المتقن » أو « الصناعة الجيدة » .

دور « الالتزام » بين « الفكر » و « العمل » . .

وهنا قد يقول قائل : « إننا لسنا جميعا فنانين ، فلا يمكن أن يكون للعمل عندنا ــ في جميع الحالات ــ مثل هذا الطابع الإبداعي » . ونحن نوافق أصحاب هذا الرأي على أن العمل

البشرى لا يتسم دائما بهذه الصبغة الجمالية ، ولكننا نميل إلى الظن بأن من شأن كل عمل بشرى — كائنا ما كان — أن يضيف شيئا من الجدة الى الواقع الماثل من ذى قبل ، أو أن يضفى طابعا إنسانيا على شيء ناقص غير مكتمل . وكثيرا ما يعمل الإنسان من أجل الناتج الذى يحققه ، أو المشروع الذى ينفذه ، لا من أجل ذاته أو وجوده الخاص . صحيح ان الذات الإنسانية أسمى بكثير من كل ما تبدعه ، أو كل ما تصنعه ، ولكنها لا يمكن أن توجد ، اللهم إلا إذا تجسدت . وتحققت ، واندمجت فى واقع مادى ، بحيث تضع فى مقابل وجودها الروحى « أو الذهنى » حقيقة عينية تكون هى « العمل » الذى تتعرف على نفسها فيه . وإذا كان من شأن « الفكر » أن يظل ضمنيا أو مضمرا ، إلى أن تجىء « اللغة » فتسمح له بالتحقق أو التجسد ، وبذلك يدرك « الفكر » ذاته من خلال تلك الواسطة اللغوية ؛ فإن من شأن « النفس » أيضا أن تتخذ من « البدن » واسطة تضمن لنفسها التحقق من خلالها ، وكأن « العمل » الذى ينهض بأدائه الإنسان هو الواسطة التى تسمح للروح بأن تنسى ذاتها . ولا غرو ، فإن الذات التى تعمل تنسى نفسها ؛ وتندمج فى عملها ، وتخضع بسخاء لهذا النشاط العملى الذى تقوم به .

ومن هنا فقد يكون فى وسعنا أن نفهم السر فى ارتباط العمل بالالتزام : Engagement ، وماذا عسى أن يكون « الالتزام » إن لم يكن تعبيرا عن هذه الحقيقة البشرية الهامة .

ألا وهى : إنه لا بد للنشاط الذهنى للإنسان من أن يستحيل إلى نشاط عملى « هادف » ، وإلا لأصبح حلما واهيا ، أو سرابا خداعا ، أو صورة من صور «الهروب» « Evasion »

فالمعيار الأوحد الذى نستطيع عن طريقه أن نحكم على « الحقيقة » التى يؤمن بها أى مفكر ، إنما هو مدى قدرة هذه الحقيقة على تغيير العالم وإصلاح الإنسان ، خصوصا وأن الفكر الصادق هو بلا شك ذلك الذى يرتد إلى نفسه فيغير من طبيعة صاحبه ، ويلزمه بالانصياع لمبادئه . والحق أن العمل هو التزام الإنسان فى الطبيعة والمجتمع : لأن كل من وهب نفسه لخدمة فكرة أو لنشر مبدأ ، لا بد من أن يجد نفسه ملزما بالعمل على تحقيق هذه الفكرة ، أو تنفيذ ذلك المبدأ . ولما كان الإنسان موجودا متجسدا « أعنى نفسا تملك جسدا » ، فليس فى إمكان فكره أن يتحقق إلا عن طريق الالتزام « أعنى عن طريق الانخراط فى مواقف عينية » . ومهما يكن من سمو أية فكرة ، فإنها لا تصبح حقيقة إنسانية اللهم إلا إذا وجدت « الذات » التى تتخذ منها هدفا تسعى إليه ، وتعمل بالتالى فى سبيل تحقيقها . ونحن حين نعمل ، فإننا نأخذ على عاتقنا ربط الفكر بالواقع العملى ، والوفاء بالتزاماتنا الفكرية أمام الكون من جهة ، وأمام المجتمع من جهة أخرى . وأما حين نركن إلى الخمول والخمود ، أو حين نعمد إلى التكاسل والتواكل ، فهناك يضعف فى نفوسنا معنى الالتزام ، ونشعر بأننا قد أصبحنا كائنات حالمة ، أو واهمة ، أو واهية ، لأننا

لم نعد نملك أهدافا نسعى إلى بلوغها . أو غايات نعمل فى سبيل الوصول إليها . وربما كان من بعض أفضال « العمل » على الموجود البشرى أنه يزيد من إحساسه بالحرية ، وشعوره بالمسئولية ، فيجعله يدرك الدلالة الميتافيزيقية للالتزام باعتباره تعبيرا عن ارتباط الذات بالكون من جهة ، وارتباطها بالآخرين من جهة أخرى . وقد يستطيع المرء — عن طريق الفكر — أن يقبع فى ذاته ، أو أن ينطوى على نفسه ، ولكنه لن يسلك — حين يقوم بأى نشاط عملى — أن يبقى وحيدا لا تربطه بالعالم أو بالآخرين أية صلة . فالعمل هو الأداة التى تقذف بنا إلى العالم الخارجى ، وهو الجسر الذى تعبره الذات لتصل إلى دنيا الناس . وهذا هو السبب فى أن أصداء أعمالنا لا بد بالضرورة من أن تتردد فى العالم ، والمجتمع ، والتاريخ ...

نحن لا نعمل « لذواتنا » فقط ، بل نحن نعمل أيضا « للآخرين » !

... إن الإنسان لينتشر فيما حوله — بتأثير أفعاله — وكأن من شأن كل عمل يقوم به أن يخرجه من ذاته ، لكى ينتقل به إلى عالم الآخرين . وليس فى وسع المرء أن يتنفس ، أو يتحرك ، أو يفكر ، أو يحيا ، دون أن يسجل طابعه الشخصى فى العالم الخارجى . ونحن نشعر بأن جو الفردية — بطبيعته — جو محدود ، خانق ، ضيق الرقعة ، فليس فى استطاعة واحد منا أن يكتفى

بنفسه . وإنما لا بد له من أن يعمل للآخرين ، ومع الآخرين ، وبالآخرين . صحيح أن كل فرد منا قد يحاول أن ينظم أمور حياته بنفسه ولنفسه فقط . ولكنه سرعان ما يتحقق من أن حياة الأفراد هي من الترابط بحيث قد يستحيل أن تتصور عملا واحدا لا يتسع في دوائر كبيرة لا تحصى ، بحيث يصل إلى أبعد من الهدف الذي كان يرمي إليه صاحبه . وهناك أفعال قد تبدو لنا تافهة عديمة الشأن ، ولكن تأثيرها قد يكون أعمق وأبعد مدى من كل ما نتوهم : إذ قد تبعث الاضطراب والفوضى في حياة يائسة مظلمة ، أو قد تنتزع مجهولا من أنانيته ونرجسيته . أو هي قد تسبب أخطاء وعثرات لدى البعض الآخر . ومن هذه الأفعال وأصدائها تتألف مأساة الحياة الإنسانية بكل ما فيها من شرور وخيرات !.

ولئن كنا قد ذكرنا فيما سلف أن في « العمل » موضوعية ونسيانا للذات ، إلا أننا نستطيع أن نضيف إلى ذلك أن « مجموع أعمالنا » لا بد من أن يجيء فيطبع صورتنا في الوسط الذي نعيش فيه . ومعنى هذا أن الذات تتحقق في العالم الخارجي من خلال الأعمال التي تنجزها ، والأفعال التي تؤديها ، بحيث إنها لتصبح مركز إشعاع ذاتي في العالم الذي تعيش فيه . ولو أننا نظرنا إلى أفعالنا الخلقية ، لوجدنا أنها ليست مجرد حركات تصدر عنا ، أو استجابات نقوم بها ، بل هي مظاهر لنيات خاصة نريد أن نحققها ، أو هي تعبير عن مثل عليا نحاول أن نجسدها في سلوكنا العملي . وإذا كان للفعل

الخلقى حقيقته النوعية التى تميزه عن كل ما عداه من أفعال ، فذلك لأنه مظهر لحياة فردية خاصة . وتعبير عن طابع شخصى معين . ولكن كلا منا حين يعمل « عملا أخلاقيا » فإنه يحقق فعله للآخرين وبالآخرين . وهناك سمة عامة تميز كل نشاط أخلاقى ، وتلك هى الرغبة الملحة التى تفرض على الناس أن يتواصلوا ، ويتفاهموا ، ويتقاسموا عواطفهم ومشاعرهم وأفكارهم ، بحيث يمتد كل منهم بذاته إلى الآخرين ، آملا من وراء ذلك أن يطبع صورته فى نفوس الآخرين ، حتى يكونوا له شهودا ومعاونين ، إن لم نقل شركاء ومقلدين !

والواقع أن « الفعل » الذى يقوم به الفرد ليس مجرد « عمل خاص » يهم صاحبه وحده دون سواه ، بل هو « عمل اجتماعى » يتسم بطابع كلى عام : لأنه يخرج إلى الوسط الجمعى الذى يتحقق فيه ، فيحدث تأثيره فى عقول الآخرين وأفئدتهم وشتى جوانب حياتهم . ولو أننا ضربنا صفحا عن تلك الأعمال التى يقوم بها البشر بحكم الغريزة أو العادة أو « الروتين » ، لكان فى وسعنا أن نقول إن معظم الأفعال الإنسانية هى بمثابة نيات متحققة ، وقيم أخلاقية متجسدة ، ومثل عليا متجسّمة : فهى ظواهر اجتماعية هامة لها دلالتها الخاصة فى صميم الوسط الخارجى الذى تتحقق فيه . وإذن فإن العمل الذى يقوم به الفرد — وإن بدا له أحيانا عملا فرديا يعنيه هو وحده — عمل اجتماعى يقوم بدور المحرك الفعال أو المؤثر القوى فى وسط خارجى يضم أفرادا آخرين هم على

استعداد لتفهم دلالة ذلك العمل . إن لم نقل بأنهم قد يقعون تحت تأثيره ، ويعملون ــ بدورهم ــ مترسمين خطاه [١] .

. . . .

ان كل فعل هو نقطة تحول فى مسار التاريخ الكلى الشامل !

... حقا إن نتائج أعمالنا قد لا تجيء دائما مطابقة لمقاصدنا : فإن الفعل المتحقق يختلف بالضرورة عن الفعل المتصور . ولكن من المؤكد أننا مسئولون دائما عن كل ما قد يترتب على أفعالنا من آثار . فليس فى استطاعتنا أن نحول دون امتـــداد نتائج أفعالنا إلى الآخرين ، أو أن نغسل أيدينا تماما من كل آثار قد تنجم عن أعمالنا فى عالم الآخرين ، وإنما لا بد لنا من أن نعـــترف بأنه يستحيل علينـــا أن نخطىء دون أن نسىء إلى الآخرين . كما أنه ليس فى وسعنا أن ننفذ إلى الوسط المحيط بنا ، أو أن نخرج منه ، كيفما نشاء وفى أى وقت نشاء . والحق أننا لا نملك من الحرية ما نستطيع معه أن نمنع الآخرين من التأثر بأفكارنا ، وأفعالنا ، وعواطفنا ، لأنه بمجرد ما نتمكن من التعبير عن أفكارنا ، أو الإتيـــان بأفعالنا ، أو الترجمـــة عن عواطفنا ، فإننـــا نكون عندئذ قد طبعنا صورتنا الخاصـــة فى الوسط الاجتماعى المحيط بنا . وحين يتحقق « الفعل » ، فإنه يصبح عندئذ بمثابة « رسالة » نوجهها إلى كل من يستطيع

---

(١) Maurice Blondel : « L' Action ». Vol. II. Paris, 1937, P. 235 — 6.

الفهم ، والمعرفة ، والإرادة . ولا غرو . فإن « الانتشـــار » و « الاستمرار » سمتان أساسيتان من سمات « الفعل » ، حتى لقد قال بعض الفلاسفة إن الفعل ــ كالطفل ــ يحيا ، وينمو ، ويترقى ، فضلا عن أنه يحمل فى طياته « شعلة روحية » تلتمس الفهم ، والاستجابة ، ورد الفعل . وليس أمعن فى الخطأ مما توهمه بعض أنصار « المثالية الذاتية » حينما زعموا أن « الذات مغلقة ليس لها أبواب ولا نوافذ تطل منها على العالم الخارجى» ، وكأن الذات عالم قائم بذاته ، أو قوقعة مغلقة على نفسها ، أو كأن فى استطاعة الذات أن تتوقف عن الفعل ، أو أن تكف تماما عن تحقيق ذاتها فى العالم الخارجى !.

والحق أننا موجودات عاملة تحيا فى الخارج أكثر مما تحيا فى الداخل ، وتدرك ذوات الآخرين قبل أن يتوافر لها وعى حقيقى بذاتها الخاصة . وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا : إننا ننفذ ــ جميعا ــ بعضنا فى البعض الآخر ، وكأن ثمة « تناسلا روحيا » يتم بين أفكارنا ، أو « ولادة روحيـــة » تتم بين أفعالنا . وهذا التلاقح الروحى الذى يشهده عالم الإنسان فى كل لحظة ، إنما هو الدليل القاطع على أن أحدا لا يفكر بذاته ولذاته ، بل هو يفكر للآخرين وبالآخرين . كما أن أحـــدا لا يعمل بذاته ولذاته ، بل هو يعمل للآخرين وبالآخرين . وحين يقول الفيلسوف الفرنسى الراحل « موريس بلوندل » Maurice Blondel : « إن كل فعل هو نقطة تحول فى مسار التاريخ الشامل » ، فإنه يعنى بذلك أن أصداء الفعل قد تتسع

حتى تشمل مجرى الأحداث الكونية والبشرية فى كل مكان . ولا بد للإنسان — والحالة هذه — من أن يعمل ، وكأنما هو يحكم العالم بأسره : فإن الآخرين قد يتقبلون أدنى منحة تقدم لهم ، وهم قد يكونون على استعداد لأن يستخرجوا منها كل ما تنطوى عليه من معان كامنة أو قيم دفينة . وليس من الضرورى أن يتوافر لدى المرء وعى واضح بكل النتائج التى تترتب على فعله : فقد يحدث فى بعض الأحيان أن تكون هناك بواعث خفية تحول دون فهمه للمضمون الحقيقى لهذا الفعل ، وإن كانت هذه البواعث قد لا تمنع من تحقق تلك النتائج بمقتضى المنطق الضرورى الكامن فى صميم « الفعل » نفسه . ومهما يكن من شىء ، فإن « العمل » الذى نقوم به لا بد من أن يترك أثره فى حياتنا الخاصة من جهة ، وحياة الآخرين من جهة أخرى . وحين تحدث مونييه Mounier (زعيم النزعة الشخصانية فى فرنسا) عن أبعاد الفعل الأربعة ، فإنه كان يعنى أن الفعل يعدل من الواقع الخارجى ، ويصنع ذواتنا ، ويقربنا من الناس ، ويثرى عالم القيم [1] ...

(1) E. Mounier : « Le Personnalisme », Paris, P. 105.

ونحن نلاحظ أن هناك عناصر أربعة تدخل فى تكوين كل فعل :

(١) الفرد الذى يحققه . (٢) المادة التى يحاول أن يمارس فيها فعله . (٣) المقاومة التى يجب أن يتغلب عليها . (٤) الجهد الذى يتمثل فى النشاط المبذول من أجل الفعل .

وقد بقى « العمـل » موضوعا يستأثر باهتمام علماء الاقتصاد ، ورجال السياسة ، وعلماء الاجتماع ، وأهل الأخلاق ، بينما ظل الفلاسفة يوجهون معظم انتباههم إلى دراسه «الفكر» ، دون العناية بالخوض فى بحث « الفعل » . ولم يلبث أهل الفكر المعاصر أن فطنوا إلى هـذا النقص فى دراستهم للموقف البشرى ، فاتجهوا بأبصارهم نحو معنى النشاط العملى ، وراحوا يدرسون الدلالة الميتافيزيقية للعمل البشرى . وجاء برجسون Bergson فأعلن أن ما نعمله رهن بما نحن إياه ، بمعنى أن فعلنا متوقف على نوع وجودنا ، أو أننا عين ما نعمل « إن صح هذا التعبير » (١) .

وانتشرت فلسفة الفعـل فى أجواء الفكر المعاصر ، فقام فلاسفة كثيرون بتحليل طبيعة العمل ، ومعنى الالتزام ، ودور الحرية فى الفعل البشرى ... إلخ . وارتبط معنى الفعل ـ

(١) Bergson : « L' Evolution Créatrice. » P. 7.

أذهان الكثيرين — بمعنى خلق الذات بالذات، فلم يعد «العمل» مجرد مظهر « لاغتراب الذات عن نفسها » Alienation بل أصبح أيضا علما على « ارتداد الذات إلى نفسها » (مادام من شأنه أن يحيل الشيء الهجين الغريب إلى شيء عادى مألوف ، وأن يخلع على الشيء المختلط عديم الصورة طابعا بشريا أو صورة إنسانية) ... وهكذا أدرك الإنسان المعاصر أنه أولا : لا يوجد إلا بقدر ما يعمل : لأن الفعل وحده هو الذى يجعله يوجد « بمعنى الكلمة » ، وأنه ثانيا : يفرض بعمله دائما ضربا من التغيير أو التعديل على العالم المادى : لأن الفعل الذى يقوم به لا بد من أن يحدث آثاره فى العالم الخارجى ، وأنه ثالثا : يخلق عن طريق فعله نوعا من الاتصال بينه وبين الآخرين : لأنه يخلق بالتزامه أمام نفسه وأمام الآخرين « عالما روحيا » يقوم على التأثير والتأثر ، وأنه رابعا : يعمل على تدعيم عالم القيم البشرية : لأنه يحرر الذوات الأخرى ويوقظها من سباتها حين يجسم مثله العليا فى الوسط الاجتماعى ، فيعمل على تقريب شقة الخلاف بين الواقع والمثل الأعلى [١] ! .

تلك هى الخطوط العريضة لفلسفة الفعل ، على نحو ما يفهمها الفيلسوف المعاصر . ولقد كان معنى « اللوغوس » Logos فى الفكر القديم هو « الحقيقة » ، فأصبح معناه فى الفكر المعاصر هو « الحياة » . وكان الأقدمون يقولون « فى

---

(١) Lavelle : « De L'Acte ». P. 182.

البدء كانت الكلمة » ، فأصبح المحدثون يقـولون : « فى البدء كان الفعل » . وإذن أفليس من واجب المفكر العربى — اليوم — أن يعلى من قيمة « العمل » ، وأن يبرز أهمية « الالتزام » ، حتى يسهم فى خلق مجتمع جديد يقوم على فضائل الجهد ، والإيجابية ، والإنتاج ؟ أليس من حقنا عليك — أيها القارىء العربى الكريم — أن ندعوك إلى الخروج من عالم الذاتية ، والأنانية ، والاستغراق فى أحلام اليقظة ، من أجل الاندماج فى عالم الايثار ، والغيرية ، والعمـل من أجل الآخرين ؟ ... إن « العمل » هو الألف والياء فى دراما الوجود البشرى ، فلا بد لنا من أن نعمل حتى نفصل فى مصيرنا لأنفسنا وبأنفسنا ، « وقل اعمـلوا ، فسيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون » .

تخلفنا الفكرى : ما أسبابه؟

قد يكون التخلف الفكرى مظهرا من مظاهــر التخلف الحضــارى ، إن لم يكن هو المصــدر الحقيقى لكل تخلف حضــارى . ونحن نظن أن « التقــدم التكنولوجى » هو ــ وحده ــ معيار « التقدم الحضارى » ، ولكن الحقيقة أن « التكنية » ثمرة من ثمار « العلم » ، و « العلم » مظهر من مظاهر « التقدم الفكرى » .. فالسر فى تخلفنا الحضارى أننا لم نصل بعد إلى مرحلة « التفكير العلمى » ، بدليل أننا قلما نصطنع فى معالجتنا لأية مشكلة ــ عامة كانت أم خاصة ــ منهجا علميا .

.. إننا متخلفون فكريا : لأننا نفكر بلا منهج ، نفكر بطريقة اعتباطية ، نفكر على نحو عشوائى ، نفكر دائما تفكيرا ارتجاليا . وكثيرا ما تسبق ألفاظنا أفكارنا ، فلا يكون « القول » عندنا مكافئا « للفكر » ؛ ولا تجىء « الكلمة » عنــدنا على قد « الفكرة » . وربما كان من أبرز عيوبنا الفكرية أننا « نتكلم » أولا ، ثم « نفكر » بعــد ذلك ، أو أننا ــ على أكثر تقدير ــ « نفكر » ونحن « نتكلم » ! هذا إلى أننا كثيرا ما « نقول »

أكثر مما « نعرف » ، أو كثيرا ما « نتكلم » دون أن نكون قد « فكرنا » فيما نقول ! وهذه الظاهرة الخطيرة التى يصبح معها « الفكر » عاجزا عن ملاحقة « اللغة » ، إنما هى عرض من أعراض « تخلفنا الفكرى » .

تفكيرنا قائم على التبرير الجدلى ..

والحق أنه إذا كانت هناك « طريقة » كثيرا ما نصطنعها فى تفكيرنا ، فتلك هى طريقة « التبرير الجدلى » . وآية ذلك أننا نفترض سلفا صحة بعض الأفكار ، ثم نعمد من بعد إلى تبريرها . ومعنى هذا أننا كثيرا ما نلتمس الحجج لتبرير ما اعتقدنا ــ منذ البداية ــ أنه صحيح ، وكأن كل مهمة الفكر عندنا هى التماس « المبررات » أو « المسوغات » ، لتأييد «رأى سابق» ، أو تبرير «فكرة مسبقة» . وإذا كان «العناد» مظهرا من مظاهر الضعف العقلى الذى كثيرا ما نلتقى به لدى الأطفال أو لدى البدائيين ، فإن « التبرير الجدلى » أيضا مظهر من مظاهر التخلف الفكرى الذى نلمسه بوضوح لدى الشعوب النامية أو المتخلفة .

والخطأ الأكبر فى طريقة التبرير الجدلى أنها طريقة غير علمية تستطيع عن طريقها أن تثبت ما تشاء ! إنها طريقة المفكر العاجز العنيد الذى لا يريد أن يرى الحقيقة ، لأنه لا يقوى على مواجهتها ، ولا يملك من الشجاعة ما يستطيع معه مجابهة الواقع ! فنحن هنا بإزاء طريقة فكرية قاصرة ، نريد من ورائها

تبرير معتقداتنا بأى ثمن ، ونحاول عن طريقها التماس المعاذير لأخطائنا الفكرية العتيقة ، مهما كلفنا ذلك من تضحيات ! ولن يكون فى وسعنا أن نخطو خطوة واحـــدة على درب التقدم الفكرى ، اللهم إلا إذا آلينا على أنفسنا ألا نصطنع فى تفكيرنا طريقة التبرير الجدلى .

تفكيرنا ــ فى معظمه ــ تفكير اسطورى

وقد لا نبالغ إذا قلنا إننا ما زلنا نحيا فى عهد «الأسطورة» : وآية ذلك أننا ما نزال نفكر كما كان يفكر أجـــدادنا الذين كانوا يؤمنون بالسحر ، والخرافات ، والأساطير ، والغيبيات ، والخوارق ، والأعاجيب !.. إننا ما زلنا نعمى أعيننا عن رؤية الأسباب الموضوعية للظواهر ، لكى نفسرها تفسيرا سحريا ، أو أسطوريا ، أو لاهوتيا ، أو غير ذلك .

والواقع أن هناك خرافات كثيرة نعيش عليها : لأنها تمثل ــ فى نظرنا ــ آراء واضحة أو أفكارا بينة ، لدرجة أن أى ظل من الشك يلقى حولها ، لا بد بالضرورة من أن يولد لدينا شعورا بالدهشة والاستغراب ! وقد أثبتت التجارب أنه حينما يكون المرء بإزاء فكرة تبدو واضحة بذاتها ، لدرجة أن مجرد التعرض لمناقشتها قد يعد فى نظر الناس أمرا غير مشروع ، أو عملا غير مرغوب فيه ، فإن هناك احتمالا كبيرا فى أن تكون هذه الفكرة زائفة أو واهية أو متنافية مع العقل ، وبالتالى فإنها قد لا تستند إلى حقيقة بينة كما يتوهم العامة من الناس !

وليس أكثر من أمثال هذه الأفكار الزائفة فى حصيلتنا الثقافية والحضارية ! إن بعض مما نسميه «حقائق» أو «وقائع» لا يزيد عن كونه مجرد « خرافات » أو « أساطير » . ولو قام بيننا اليوم أوجست كونت ، لقال عنا إننا ما زلنا نحيا فى المرحلة الأولى من مراحل تطور الفكر البشرى « وفقا لقانون الأطوار الثلاثة » : ألا وهى المرحلة اللاهوتية أو الغيبية !

إن أحدا لا ينكر قيمة الإيمان الدينى ، أو دور الله فى تجربتنا البشرية ، ولكن من المؤكد أن العقيدة الدينية لا يمكن أن تقوم مقام التجربة العلمية ، كما أن التفسير الغيبى لا يمكن أن يحل محل القانون العلمى . وليس أمعن فى الخطأ من أن يتوهم بعض رجالات التفكير الدينى أن الدعوة إلى الأخذ بالروح العلمية هى بمثابة دعوة إلحادية أو ثورة على الإيمان الدينى .. وإنما الروح العلمية — فى صميمها — دعوة إلى التأمل فى الطبيعة التى خلقها الله ، من أجل اكتشاف القوانين المطردة التى تخضع لها ، بغية الوصول إلى المزيد من الفهم والتعقل .. وليس من الإيمان فى شىء أن يحيا الإنسان على مجموعة من الأوهام أو الخرافات أو الأساطير ، بل الإيمان الصحيح هو ذلك الذى يتأمل بعين العقل والحكمة فى أعاجيب الخالق جل جلاله . ومن هنا فإن التفكير الأسطورى لا يتعارض مع العقل فحسب — بل هو يتعارض أيضا مع الروح الدينية الحقة ..

ثم ان تفكيرنا تفكير انفعالى

وهنالك سمة أخرى تسم بطابعها كل ــ أو جل ــ تفكيرنا ، وتلك هى الصبغة الوجدانية التى تجعل من تفكيرنا مجرد تفكير انفعالى . والواقع أننا قلما نفكر تفكيرا موضوعيا عقلانيا : لأننا قد اعتدنا أن نزن الأمور بموازين عاطفية ، ذاتية ، دون أن يخطر على بالنا يوما أن نحكم على الأشياء حكما علميا قوامه الحياد العقلى واستبعاد الذات . وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن التفكير الانفعالى هو فى صميمه تفكير متحيز يجهل النزاهة العلمية ، ويفتقر إلى الدعامة الموضوعية . فنحن حين نستند فى تفكيرنا إلى مجموعة من الانفعالات ، أو العواطف ، أو التأثرات الوجدانية ، إنما ننظر إلى المسائل بمنظار ذاتى ، زئبقى ، سريع التغير . وهذا هو السبب فى أننا كثيرا ما نغير من وجهة نظرنا إلى الأشياء ، دون أن تكون هناك أسباب موضوعية تبرر مثل هذا التغيير . وعلى العكس من ذلك ، كثيرا ما نظل متمسكين بموقف عاطفى ثابت ، بإزاء قضية ما من القضايا ، على الرغم من تغير الملابسات الموضوعية التى أصبحت تحيط بهذه القضية .. ولا شك أن التفكير الانفعالى هو وحده المسئول عن مثل هذا التخبط فى تقديرنا للأشياء ، خصوصاً وأن من شأن « الانفعالات » أو « العواطف » ــ فى العادة ــ أن تجىء فتفسد علينا رجاحة الفكرة وسلامة الرأى .

ونحن نفكر — أيضا — بمجموعة من « الأكليشيهات » الجاهزة !

وربما كان من بعض مظاهر تخلفنا الفكرى — أيضا — أننا نصطنع فى تفكيرنا أساليب نمطية جاهزة ، وكأننا نفكر بمجموعة من « الإكليشيهات » الجامدة ، دون أن نحاول الاهتداء إلى الحقائق عن طريق البحث الحر النزيه . ووجه الخطورة فى هذا النوع من التفكير أنه تفكير آلى عقيم ، يدور دائما فى فلك واحد بعينه ، دون أن يكون فى وسعه التكيف مع طبيعة الموضوع المراد بحثه . وآية ذلك أن المفكر الذى يصطنع فى تفكيره طريقة « الإكليشيهات » الجاهزة ، إنما هو فى الحقيقة مفكر لفظى يحيا على مجموعة من « المفاهيم » أو «التصورات» أو « الشعارات » ، غير آبه بما يستجد على المواقف من تغير أو اختلاف أو جدة ! وهذه الطريقة فى التفكير تكاد تخلو من كل أصالة أو إبداع : لأنها طريقة اتّباعيّة تكرارية ، يطبق فيها المفكر مبادىء واحـدة بعينها على مواقف مختلفة متنوعة ، فلا يكاد يفطن إلى ما فى الظروف من اختـلاف أو تباين ، ولا يكاد يقف على ما فى التاريخ الحى من جدة وأصالة . ولعل هذا ما عبر عنه برجسون حين قال إن التفكير الجامد هو ذلك التفكير الآلى الذى لا يجىء على قد الموضوع ، ولا يتماوج مع ذبذبات الواقع ...

والمشاهد فى أساليبنا التربوية أنها — فى العادة — تنمى لدى أطفالنا هذه الطريقة العقيمة فى التفكير : لأنها تزودهم

بمجموعة من « الإكليشيهات » المحفوظة التى يرددها الأطفال ترديدا ببغاويا ، دون أن يكون فى وسعهم التمييز بين المواقف المختلفة التى تنطبق عليهـا — أو لا تنطبق — مثـل هذه « الإكليشيهات » ! وفات أهل التربية — عندنا — أنه ليس المهم — كما قال كانت — أن نلقن أطفالنا بعض الأفكار (الجاهزة) ، بل المهم أن نعلمهم كيف يفكرون ..

هل تكون انظمتنا التربوية هى المسئولة عن تخلفنا الفكرى ؟

وهنا قد يحق لنا أن نقف وقفة قصيرة عند علة أساسية من علل تخلفنا الفكرى : وتلك هى أنظمتنا التعليمية والتربوية . والواقع أننا ما زلنا ننمى لدى أطفالنا وشبابنا ملكات الحفظ والاستذكار ، دون أن نهتم بتربية ملكاتهم النقدية والإبداعية . وآية ذلك أننا نعلم أبناءنا كيف يحفظون ، ولكننا قلما نعلمهم كيف يفكرون . بل إننا لنلاحظ — حتى فى الجامعات والمعاهد العليا — أن الطلاب عندنا يتلقون بعض المعلومات ، ويستذكرون بعض المحاضرات ، دون أن يهتموا بنقد ما يقرأون ، ودون أن يأخذوا على عاتقهم مهمة التفكير لحسابهم الخاص . والظاهر أن مناهج التعليم — فى المدارس الثانوية المصرية — قد عملت على تكوين عقلية خاصة ، رائدها الحفظ ، وآفتها الاستذكار — أو الاستظهار — ، فلم يعد الطالب المصرى — حتى فى المرحلة الجامعية — يفهم من « العلم » ســوى أنه « مجموعة من المعارف الجاهزة التى لا بد من تحصيلها عن ظهر قلب » ! وجاء

تمسك بعض الأساتذة بآرائهم الخاصة (خصوصا فى الكليات النظرية) ، فعمل على قتل « ملكة النقـــد » لدى الطلاب ، وأصبح الطالب الجامعى عندنا يخشى أن يعارض آراء أساتذته ، أو أن يفكر لنفسه وبنفسه !

وعلى الرغم من أن مناهج الدراسة ـــ فى معظم الكليات الجامعية ـــ حافلة بمواد المناقشة وقاعات البحث ، إلا أننا قلما نلتقى فى رحاب الجامعة بحوار علمى ، أو جدل منطقى : لأننا عودنا أبناءنا التسليم والتقبل ، لا البحث والمناقشة . وهـــذا هو السبب فى أن الطالب المصرى قلما يأخذ على عاتقه مهمه التحقق من صحة ما يقرأ ، أو التثبت من صدق ما يسمع : لأن المهم عنده دائما هو « من قال » ، لا « ما قال » ! وكثيرا ما يقتصر الطالب عندنا على نسبة الرأى الذى ينادى به إلى عالم كبير أو فيلسوف شهير ، دون أن يعنى نفسه بنقد هذا الرأى أو مناقشته ، بل دون أن يقوم بأدنى جهد عقلى فى سبيل التثبت من صحته أو التدليل على صدقه !

والحق أننا ننمى فى عقول أبنائنـــا روح النقل والترديد والاتباع ، دون أن نهتم بتربية ما قد يكون لديهم من ملكات النقد والتجديد والإبداع . ونحن لا ننكر أهمية التراث ، كما أننا لا نجحد دور التقليد ، ولكننا واثقون أيضا من أنه لا بد فى الحياة الثقافية من تجديد ، كما أنه لا بد فى الوقت نفسه من ثورة فكرية . وليس من شك فى أن الفكر الأصيل

إنما هو ذلك الذى ينبع من أبعد الأغوار الشخصية حيث تتكون الحقائق الكبرى ، ولكن من المؤكد أيضا ــ كما قال جوته ــ « إن ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا ، هو فى حاجة دائما إلى أن نعاود اكتسابه ، حتى يصبح ملكا لنا » ! .. إننا فى حاجة إلى معاودة التفكير لأنفسنا ، دون الاقتصار على ترديد آراء الآخرين ، أو ترجمة أفكار بعض القدامى أو المحدثين ! ومهما تكن أهمية التراث ، بل مهما تكن قيمة التقليد ، فلا بد لنا أيضا من أصالة ، ولا بد لنا من تجديد .. ولن يكون فى وسعنا أن نقضى على أسباب تخلفنا الفكرى ، اللهم إلا يوم نكون قد آلينا على أنفسنا أن نفسح المجال للنقد الحر النزيه ، وأن ندعو شبابنا إلى المزيد من الحوار الفلسفى المفتوح ..

أزمة القيم في مجتمعنا العربي المعاصر

هل تعرف الفارق بين رجل عصابي (مصـــاب بمرض نفسي) لا يدرى أنه ضحية لعقدة نفسية ورجل عصابى آخر يعلم أنه مريض يعانى عقدة نفسية ؟

وهل تعرف الفارق بين شخص كذوب يكذب ولا يدرى أنه يكـــذب ، وشخص كذوب آخـــر يكذب ولـــكنه يدرك أنه يكذب ؟

وهل تعرف الفارق بين إنسان جبان يرتعد خوفا ولا يفطن إلى أنه خائف مذعور ، وإنسان جبان آخر يرتعد خوفا ولكنه يشعر أنه خائف مذعور ؟ ...

إذا عرفت ذلك ، فقد أدركت قيمة « الوعى الذاتى » ، أو نقد النفس ، مع ما يقترن به من عملية « تجاوز » أو « تعدٍّ » Transcendence يكون من شأنهـــا الانتقال بصاحبها إلى ما وراء « موقف » كان مندمجا فيه ملتحما به . والحق أن أهم سمة تميز الموجود البشرى إنما هى ــ على وجه التحديد ــ هذه القدرة المستمرة على التحـــرك والتطور والانطـــلاق ، وبالتالى فإن من طبيعة الإنسان أن يتخطى شتى المواقف التى

اقتادته إليها حركته التطورية الدائبة . ولولا هـذه العملية النفسية التى يسميها الفلاسفة وعلماء النفس باسم عملية «العلو» أو « التجاوز » ، لبقى الإنسان أسيرا لحالاته النفسية السابقة ، ومواقفه الشعورية الماضية ، دون أن يملك الخروج عنها ، أو الحكم عليها . ولكن « الوعى الذاتى » أو « نقد النفس » هو الذى يجىء فيسمح للموجود البشرى بالانفلات من ماضيه . والعمل على « تقييمه » ، فى ضوء ما طرأ على حياته النفسية من أزمات وخبرات .

وأغلب الظن أن النكسة الأخيرة التى طرأت على مجتمعنا العربى المعاصر قد ألقت أمامنا الآن الكثير من الأضواء على « أزمة القيم » التى كنا نعانى من وطأتها الأمرّين ، فأصبح فى وسعنا اليوم أن نتعرف أعراض هذه الأزمة ، وبالتالى أن نضع أيدينا على مواطن الداء ، واثقين من أن حسن وضع المشكلة انما هو البداية الصحيحة لحلها .

ضيق مفهوم « الأخلاق » عندنا

ولو أننا ألقينا نظرة سريعة على مفهومنا العربى للأخلاق ، لوجدنا أن هذا المفهوم لا يكاد يتجاوز دائرة «الحياة الجنسية»، مع ما تتطلبه من تنظيم لعلاقات الرجال بالنساء . فالأخلاق عندنا مقصورة على مسائل العرْض والشرف والعفاف والوفاء الزوجى ، حتى إن « القيمة الخلقية » لا تكاد تعدو هذه الدائرة الضيقة من دوائر السلوك البشرى . ولعل هذا ما حدا ببعض

علماء الأخلاق إلى القول بأن « الضمير » الأوحد الذي نلتقى به لدى أفراد المجتمع العربى إنما هو « الضمير الجنسى ». وأما أن يكون لكلمة « الشرف » بمعان أخرى غير ما يتصل بمسائل العرض والعفة ، فهذا ما قلما يخطر لنا على بال . وآية ذلك أننا لا نعلق كبير أهمية على « الضمير المهنى » ، و « الضمير المدنى » و « الضمير القومى » ، و « الضمير العالمى » ، مقتصرين فى العادة على تنمية « ضميرنا الجنسى » وحده دون سواه . فنحن نلوم — مثلا — ذلك الشخص الذى يعد فتاة ما بالزواج دون أن يفى بوعده ، بينما لا يكاد يخطر على بالنا أن نلوم سياسيا لأنه غرر بشعبه ، أو أن ننحى باللائمة على شخص مسئول لأنه لم يف بتعهداته ، وهلم جرا .. ونحن نصب جام اللعنة على الزوج الخائن الذى يخدع زوجه ، ولكننا قلما نقسو فى أحكامنا على الموظف الخائن الذى يخدع أمته . ونحن نتطلب من النساء والرجال — قبل الزواج وبعده — نمطا خاصا من أنماط السلوك ، ألا وهو نمط الوفاء والأمانة، ولكننا قلما نتطلب هذا النمط الأخلاقى من أنماط السلوك فى مجالات أخرى غير مجال « علاقة الرجل بالمرأة » . ومن هنا فإننا قلما نقسو فى الحكم على التاجر « الجشع » ، أو الطالب « الغشاش » ، أو الموظف « المرتشى » ، أو الزعيم « المخادع ».

وليس من شك فى أن سوء الإدارة الحكومية (فى الكثير من المجتمعات العربية) إنما يرجع إلى ضعف « الضمير المهنى » لدى القائمين على الأعمال الحكومية .. وآية ذلك أننا لا نجد لدى الموظفين الحكوميين — فى كثير من الأحيان — إحساسا بالواجب . وشعورا بالمسئولية، ورغبة حقيقية فى خدمة الجمهور ، بل كثيرا ما نلتقى لديهم بمظاهر الإهمال والاستهتار وعدم الاكتراث ، مما يدل على أنهم لا يكادون يتمتعون بأى « ضمير مهنى » ! وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن فساد الإدارة فى معظم أجهزة الدولة ، راجع أولا وبالذات إلى عجز المواطن العربى عن فهم الدلالة الأخلاقية للعمل ، وفشل التربية العربية فى تنمية « الضمير المهنى » لدى النشء . وهكذا بقيت القواعد الأخلاقية بمنأى عن دائرة العمل أو النشاط المهنى ، وكأن ليس للعمل أصوله وقواعـــده ، وواجباته وحقـــوقه ، وتكاليفه ومسئولياته . ولن يتسنى لنا أن نخلص مجتمعنا العربى من هذا الفساد الإدارى الذى يشيع فى معظم أجهزته الحكومية والسياسية ، اللهم إلا يوم نكون قد نجحنا فى توسيع فهمنا للأخلاق ، بحيث يصبح للقيم الخلقية دورها الفعال فى شتى مجالات سلوكنا ، بما فيها مجالات العمل والإنتاج والنشاط المهنى .. إلخ .

والحق أن عجز الكثيرين من بيننا عن فهم قيمة « العمل » (بوصفه نشاطا ذا طابع أخلاقى) قد أدى إلى تمسك معظم العاملين عندنا بمبدأ « الجهد الأقل » .. ونحن لا ننكر — بطبيعة الحال — أن الإنسان أميل إلى انتهاج أقصر الطرق للوصول إلى غايته ، ولكننا نعلم أنه حينما تصبح « الوصولية » ، و « الانتهازية » ، و « الماكيافيلية » هى أقصر الطرق ، فإن المجتمع لا بد من أن يستحيل إلى بؤرة فساد أخلاقى ! ولنضرب لذلك مثلا فنقول إن الموظف قد يجد أن أقصر الطرق للوصول إلى غايته هى مجاملة رئيسه على حساب العمل ، كما أن الطالب قد يجد أن أيسر السبل لبلوغ النجاح هى تنمية علاقاته بأساتذته بدلا من الانصراف إلى مواصلة البحث والاطلاع ، وهلم جرا ... وليس من شك فى أن عدم الرغبة فى بذل الجهد للوصول إلى الغاية أو تحقيق النجاح ، إنما هو عرض من أخطر أعراض الفساد الخلقى التى قد تدب فى أوصال أى مجتمع .

ولما كان النجاح الحقيقى لا بد من أن يكون حليف الجهد الشاق والعمل المتواصل ، فإنه لمن الصعوبة بمكان أن يقتلع المربون والمصلحون من نفوس النشء هذا الإيمان الضمنى بمبدأ « الجهد الأقل » . ولكن المجتمعات التى سبقتنا إلى غرس مبدأ « العمل » فى نفوس أبنائها ، باعتباره « قيمة أخلاقية » ، إنما هى تلك التى استطاعت أن تعهد إلى كل فرد من أفرادها

بالعمل الذى يكون فى الوقت نفسه هوايتـه . وهكذا بدأ أفرادها يحب « العمل » كما يحب المرء « هواية » تأخذ بمجامع قلبه ، ثم لم يلبث « العمل » أن اكتسب فى أنظارهم « قدسية » جعلت منه نشاطا جديا له قيمته . وسرعان ما صار الصراع ضد المادة ، والعمل على تحدى العوائق ، والاهتمام بالإنتـاج الجيد ، والتفنن فى ابتكار الأعمال الأصيلة ، « قيما أخلاقية » يسعى العاملون فى سبيل تحقيقها بكل ما أوتوا من جهد وطاقة .

ولا غرو ، فإن المهندس الناجح ، والطبيب البارع ، والمدرس الكفء ، والعامل الماهر ، والصانع الممتاز : كل هؤلاء «فنانون» يتقنون حرفهم ، ويقدمون لنا إنتاجا أصيلا ، ويضعون بين أيدينا أعمالا مبتكرة . وحينما يستحيل « العمل » إلى« فن » ، أو حينما يحل « النشاط الإبداعى » محل « النشاط الآلى » ، فهنالك يكون مبدأ « الجهد الأقل » قد تحوّل إلى مبـدأ « العمل المتقن » . وحينما يتزايد ولع كل عامل بالعمل المتقن ، فهنالك لا بد لكل عامل من أن يسعى جاهدا فى سبيل إنجاز أكبر عدد ممكن من الأعمال الأصيلة المبتكرة . ولن يتسنى لنا بلوغ هذه الغاية اللهم إلا إذا عملنا على خلق جيـل من « الفنانين » الذين يحب كل منهم عمله ، ويتفنن فى أدائه ، ويجعل منه رسالة يحيا لها بقدر ما يحيا منها . ولا شك أن « الحرفة » إذا استحالت إلى « فن » فإن « العمل » لن يكون عندئذ مجرد « نشـاط خلقى » ، بل قد يستحيل أيضا إلى « نشاط جمالى » .

وعلى الرغم من أن معظم المجتمعات العربية قد أصبحت تحيا فى عصر التكنية العلمية ، بل على الرغم من أننا الآن قد أفسحنا مجالا كبيرا ــ فى نطاق أنظمتنا التعليمية والثقافية ــ للمناهج العلمية الحديثة ، فإننا مع ذلك ما زلنا نفتقـــر إلى « الروح العلمية » الحقة ، مع ما تستلزمه من مبادىء أخلاقية سليمة . والحق أن انتشار « الروح العلمية » فى أى مجتمع من المجتمعات لا بد من أن يقترن بشيوع مبادىء الصدق ، والأمانة ، والنزاهة ، والموضوعية ، وحب الحقيقة ، واحترام الواقعة ، واستبعاد الذات Self Elimination ، وغير ذلك من خصائص الروح العلمية . وقد لا نعدم ــ فى بعض المجتمعات العربية ــ تحمسا للعلم ، ومغالاة فى التمسك بقيم التكنية الحديثة ، ولكننا قلما نلتقى بمحاولات جادة من أجل العمل على نشر « الروح العلمية » أو بث أخلاق العلماء فى نفوس الأبناء . ومن هنا فقد بقيت أجيالنا الناشئة مفتقرة إلى الصفات الخلقية القويمة التى لابد من أن يقوم عليها كل بناء قومى فى مجتمع حديث يزعم لنفسه أنه « يحيا فى عصر العلم » .

وليس من شك عندنا فى أن افتقار المجتمع العربى المعاصر إلى « الروح العلمية » الصحيحة هو السر الأوحد فى أننـــا ما زلنا صرعى للعاطفيـــة الهوجاء ، والارتجال الأجـــوف ،

والنزعات الذاتية المتطرفة ، والبرامج الخطابية التافهة ! والواقع أننا غالبا ما نعيش فى جو عاطفى ملؤه الأخيلة الجامحة ، والآمال الواهية ، والشعارات الزائفة ، فضلا عن أننا ما نزال نتمسك بعبادة الأفراد ، وتأويل الخلافات المذهبية على أنها مجرد صراع بين أشخاص ! وعلى الرغم من أن المثل العربى القديم كان يقول : « ليس المهم من قال بل ماذا قال » ، إلا أننـا كثيرا ما نتناسى هذا المثل ، لكى نتوقف عند « عبادة الأشخاص » . وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن الكثير من دراساتنا التاريخية وأبحاثنا العلميـة يفتقـر إلى الدقة ، والنزاهة ، والموضوعية ، نظرا لأننا قلما ننجح فى رؤية الحقيقة مجردة عن آمالنا وآلامنا ، بعيدة عن مخاوفنا ومصالحنا ، خالصة تماما من شوائب الذاتية والميول الشخصية . وليست « أزمة القيم » عندنا سوى مظهر من مظاهر انعـدام « الروح العلميـة » الصحيحة لدى الكثيرين من روادنا وأولى الأمر فينا ، مما أدى إلى التباس « المعايير » واختلاطها على السواد الأعظم من أبناء قومنا .

والفساد الخلقى مظهر لانعدام التنظيم الاجتماعى ..

ولو أننا تصورنا « الأخلاق » على أنهـا أداة اجتماعية لتنظيم العلاقات بين الأفراد ، لكان فى وسعنا أن نقول إن غلبة « الأنانية » و « الفردية » وشتى النزعات « الذاتية » المتطرفة على أى مجتمع من المجتمعات ، إنما هى الدليل القاطع على

تخلف هذا المجتمع خلقيا واجتماعيـــا . والحق أن الظاهرة الخلقية ليست مجرد ظاهرة فردية تعبر عن سمو هـــذا الفرد أو ذاك فى سلم القيم ، بل هى أيضا ظاهرة اجتماعية تعبر عن مدى « تماسك » هذا المجتمع أو ذاك فى مضمار « التكامل الاجتماعى » . ومن هنا ارتبطت الأخلاق دائما بعملية تنمية « الوعى الاجتماعى » لدى الأفراد ، بحيث يشـــعر كل فرد بمصالح مجتمعه كما يشعر بمصلحته الخاصة ، ويدرك ضرورة العمل من أجل تحقيق الغايات الجماعية كما يدرك تماما أهمية الجهد الذى يقوم به فى سبيل تحقيق غاياته الخاصة .

بيد أن انعدام العدالة الاجتماعية فى بعض مجتمعاتنا العربية قد عمل على إقامة ضرب من التعارض بين مصلحة الفـــرد ومصلحة الجماعة ، فأصبحت الأخلاق الاجتماعية عندنا « غير ذات موضوع » . ولا شك أن تفشى الفردية ، والأنانية ، وروح المصلحة الذاتية الضيقة ، إنما هى جميعا مظاهر لإحســـاس الفرد بانعدام شتى الأواصر بينه وبين مجتمعه . ولو كانت مجتمعاتنا تنمى لدى الفرد روح التضامن الاجتماعى وتشعره عمليا بأنها تضمن له أسباب الحياة الكريمة فى ظل نظام أخلاقى يحقق المساواة للجميع ، لما نشأت لدى الأفراد تلك النزعات « الفردية » المتطرفة التى تشيع فى مجتمعاتنا الأنانية والذاتية . ومعنى هذا أنه لا ينبغى لنا أن ننتظر من « الفرد » تغليب « المصلحة الجماعية » على مصلحته الفردية الخاصة ، اللهم إلا إذا عملنا منذ البداية على تنمية إحساس الفرد بأن المجتمع فى

خدمته ، وأن كل الأنظمة الاجتماعية لا تخرج عن كونها وسائط لتنمية شخصيته وتحقيق سعادته . وأما حين تشيع فى المجتمع مظاهر التفرقة ، والمحسوبية ، وشتى أعراض الظلم الاجتماعى، فلا بد من أن تختلط القيم والمعايير على الناس ، وبالتالى لا بد من أن يحدث ضرب من الصراع بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية . وعلى العكس من ذلك ، نلاحظ أنه حين تسود الأنظمة الاجتماعية قوانين صارمة مطردة ، لا موضع فيها للصدفة أو الاتفاق أو التلاعب ، فإنه لا بد من أن يشعر كل فرد فى المجتمع بأن هناك عدالة اجتماعية تضمن لكل فرد حقه . وما دامت « الأخلاق » ضربا من ضروب التنظيم ، فستظل المجتمعات الفوضوية التى لا تكفل لأفرادها العدالة الاجتماعية فى ظل بعض الأنظمة الدقيقة الصارمة ، مجتمعات « لاأخلاقية » تسودها فوضى المعايير ، وتنخر فى عظامها أدواء الفساد الخلقى..

« الأخلاق » بين « الضمير الفردى » و « الضمير الجماعى » ..

بيد أن « الأخلاق » — مع الأسف — لا يمكن أن تفرض على الناس بسطوة القانون ، كما أنها لا يمكن أن تترتب — بطريقة تلقائية — على أى تعديل اجتماعى أو أى تنظيم اقتصادى ، فلا سبيل إذن إلى مواجهة أية فوضى أخلاقية بالاقتصار على إصدار بعض التشريعات أو إدخال بعض التحسينات على الأوضاع الاجتماعية أو النظم الاقتصادية . وإنما الأمر الذى لا بد لنا من فهمه — فى هذه المرحلة الخطيرة

التى نجتازها من مراحل تطورنا الاجتماعى — هو أنه لا بد لنا من العمل على إرساء « تقاليد خلقية » راسخة تكون بمثابة دعائم قوية لمجتمع الغد . فليس علينا أن نحشد قوانا الاعلامية لمواجهة الخطر الخارجى فحسب ، بل إن علينا أيضا أن نعبىء كل تلك القوى لمواجهة شتى الأخطار الداخلية ، بما فيها الفساد الخلقى ، وكافة مظاهر انحلال السلوك الفردى والجماعى . ولا بد للبيت والمدرسة من أن يتعاونا مع شتى أجهزة الاعلام من أجل العمل على تثبيت دعائم « أخلاق جديدة » تشيع بين أفراد المجتمع العربى قاطبة ، روح الصدق والنزاهة والنقاء الخلقى . ولا شك أنه حين ينصب الضمير الجماعى من نفسه قاضيا على ضمائر الأفراد ، وحينما يصبح الضمير الفردى نفسه على مستوى القيم الجماعية ، فإنه لا بد من أن ينشأ فى المجتمع كله « وعى أخلاقى » يقف بالمرصاد لشتى ضروب الفوضى ، والانحلال والتواكل ، والتساهل ، والتواطؤ ، والاهمال . وليست أزمة القيم التى يجتازها الآن مجتمعنا العربى المعاصر سوى عرض من أعراض ذلك « المرض الخلقى » الذى زادتنا النكسة الأخيرة إحساسا به . وإذا كان « النقد الذاتى » مظهرا من مظاهر « الصحة الخلقية » ، فذلك لأنه يزيد من شعورنا بوطأة المرض ، وبالتالى فإنه يضاعف من رغبتنا فى الشفاء . ونحن نعرف أن المريض الذى يريد أن يشفى لا بد من أن يجد السبيل إلى الشفاء ، لأن إرادة الشفاء هى الخطوة الأولى إلى التماس العلاج . ولم يكن مجتمعنا العربى فى يوم ما من الأيام

أشد إحساسا بالمرض منه فى هذه الآونة ، فقد تكشفت له أعراض المرض ، على آثار النكسة الأخيرة ، فى حدة وقسوة ومرارة . ولكن مجتمعنا العربى أيضا أشد إحساسا بحاجته إلى الشفاء والنقاء ، فى هذه الآونة ، منه فى أى وقت مضى ، وهذا الإحساس نفسه هو السر فى كثرة ارتفاع الصيحات الداعية إلى الإصلاح . ولا شك أننا لم نرد من وراء هـذه النظرة السريعة إلى « أزمة القيم » فى عالمنا العربى المعاصر ، سوى أن نعمق إحساس المواطن العربى فى كل مكان بما يكمن وراء النكسة من « فساد خلقى » . وليست عملية إعادة « البناء الخلقى » مهمة يسيرة يمكن أن تتحقق فى يوم وليلة ، وإنما هى مهمة شاقة لا بد من أن تتضافر كل الجهود فى سبيل العمل على إنجازها .

أخلاقنا في الميزان

إذا سلمنا بأن الأخلاق هي « مجموعة القواعد السلوكية التي تتبعها بالفعل جماعة من الناس في حقبة ما من الحقب التاريخية » ، فقد يكون في وسعنا أن نتحدث عن « أخلاق عربية » هي بمثابة مجموع العادات والسنن والطباع الخلقية التي يتسم بها مجتمعنا الراهن . ولسنا نريد — في هذه العجالة القصيرة — أن نعرض لدراسة النظريات الأخلاقية التي رأى مفكرونا وضعها لتحديد ما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان العربي ، بل نحن نريد الاقتصار على وصف أساليب السلوك التي يصطنعها الإنسان العربي في حياته الأخلاقية الفعلية ، وفي علاقاته الاجتماعية العملية . ولا شك أن تعقد « الظاهرة الخلقية » قد يجعل من العسير علينا تحديد كل مقومات الأخلاق العربية ، ولكن من المؤكد أن الالتجاء الى المنهج المقارن قد يعيننا — إلى حد كبير — على الكشف عن أهم الخصائص التي تتميز بها أخلاقنا .

وهنا قد يحق لنا أن نقف عند سمة أساسية تكاد تطبع بطابعها كل حياتنا الاجتماعية ، وتلك هى التحسر على الماضى ، والتطلع إلى المستقبل ! فنحن نفكر فى أمجادنا القديمة ، ونتمسك بتراث أسلافنا ، ونفخر بما حققته حضارتنا العربية المجيدة فى تاريخ البشرية جمعاء ، وهذا جميل ؛ ولكننا فى الوقت نفسه نتطلع بشغف ولهفة إلى مستقبلنا الزاهر ، ونحن إلى العصر الذهبى الذى نسترجع فيه أمجاد الماضى ، ونتحرق شوقا إلى المستقبل المشرق الذى سيكون هو الكفيل بإشباع ميولنا وتحقيق آمالنا ! وبين هذا التحسر على « الماضى » ، وذلك التطلع إلى « المستقبل » ، يقف « الحاضر » هزيلا خاشع الرأس ، وكأنما هو « النقطة الهندسية » التى لا وجود لها ، لأنها مجرد ظاهرة عرضية تعبر عن تلاقى خط الماضى بخط المستقبل !

والحق أننا كثيرا ما نلغى حاضرنا لحساب ماضينا أو مستقبلنا ، دون أن نفطن إلى أن « الحاضر » وحده هو كل ما نملكه من أقسام الزمان . ومن هنا ترانا نرسم الخطط ، ونضع المشروعات ، ولكننا قلما ننتهز الفرص ، وقلما نفيد مما بين أيدينا من امكانات . والسبب فى ذلك أننا لا نفهم أن الفعل الحقيقى هو دائما « فعل فى الآن » ، وأن الزمان الحقيقى هو باستمرار « حاضر الحاضر » ! وهكذا تضيع منا الفرص .

وتفلت من بين أيدينا لحظات الزمان ، لأننا — مع الأسف — لا نعرف كيف نعمل فى الحاضر ، ولا ندرك أن الحياة الصحيحة هى تلك التى تنقضى فى الحاضر ! وهـذه الظاهرة النفسية الخطيرة التى تصدق علينا أفرادا وجماعات ، هى السر فى أننا قلما « نحقق » شيئا : لأننا مشغولون من جهة بما « حققه » أسلافنا ، ومهمومون من جهة أخرى بما « سيحققه » أبناؤنا ! والرأى عندنا أن بيت الداء فى المجتمع العربى المعاصر أنه مجتمع واهم حالم ، يحيا فى الماضى أو فى المستقبل ، دون أن يفطن إلى أن « الحاضر » — والحاضر وحده — هو الوجود الواقعى ، الحقيقى ، اليقينى ، الأكيد !

ثم اننا كثيرا ما نخلط الحلم بالواقع !

وثمة سمة أخرى تكاد تقترن بمعظم مظاهر سلوكنا ، وتلك هى الخلط بين « الحلم » و « الواقع » ، أو بين « الخيال » و « الحقيقة » . فنحن كثيرا ما نأخذ رغباتنا وآمالنا على أنها وقائع أو حقائق ، لدرجة أن البعض منا يكاد يعيش فى عوالم وهمية هى من نسج خياله الواسع العريض ! وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن افتقارنا إلى الموضوعية هو السبب الأساسى فى هذا الخلط المستمر بين « الواقع » و « الخيال » فإن الإنسان العربى قد ألف فى سلوكه نمطا خاصا من أنماط السلوك ، ألا وهو سلوك « الهروب » أو « الفرار » : Evasion وآية ذلك أننا حين نستشعر مقاومة الواقع ، أو حين نلتقى

ببعض المصاعب ، فإننـا قلما نحاول إحالة « العـائق » إلى « واسطة » ، بل نحن لا نلبث أن نلوذ بقوقعة اليأس ، لكى ندفن رؤوسنا فى الرمال كالنعام ! وليست الأحلام ، والأوهام ، والأخيلة الكاذبة (على اختلاف أشكالها) سـوى وسـائل تعويضية نحاول عن طريقها تحويل « الفشل الواقعى » إلى « نجاح وهمى » . وعلى حين أن الوعى بالفشل هو المناسبة المواتية للشعور بالواقع ، نجد لدى الإنسان العربى أن الخلط بين الحلم والواقع هو الذى يجعله عاجزا عن الإفادة من « خبرة الفشل » !

ومن هنا فإننا نقتصر على تزييف الفشل بالنجاح ، دون أن نفطن إلى الصلة الحقيقية التى تجمع بين الإحساس بالواقع من جهة ، وخبرة الفشل من جهة أخرى . وهذا « المسلك الهروبى » يكاد يسم بطابعه سلوكنا كله ــ أفرادا كنا أو جماعات ــ لدرجة إننا قلما نلتقى بإنسان شجاع يعترف بخطئه ، أو يسلم بفشله ، بل نحن نجد لدى الكثيرين من أساليب « التضليل الذاتى » وخداع النفس ما يشهد بأن « سوء الطوية » La mauvaise Foi قد أصبح هو الرائد الأوحد لنا فى كل سلوكنا !

ونحن أيضا نهتم بـ « المظاهر » أكثر من اهتمامنا بـ « الحقائق »

ولو أننا أخذنا بالتفرقة التقليدية المعروفة بين « ظاهر » و « باطن » ، أو بين « مظهر » و « مَخبر » ، لكان فى وسعنا أن نقول إننا كثـيراً ما نضحّى بـ « الباطن » فى سـبيل

« الظاهـــر » ، وكأننا نعطى الصـــدارة للـ « مظهر » على « المخبر » ! وآية ذلك أننا قد تتوقف أحياناً عند « الأعراض »، دون النفاذ إلى « الجوهر » ، كما أننا قد نهتم بـ «الشكليات»، دون الحرص على الاحتفال بصميم « المضمون » . وليس من شك فى أن إغفال «الباطن» لحساب «الظاهر» ، اهتمام بال « صـــورة » دون « المادة » ، وعناية بـ « الشكل » دون « المضمون » . وليس هذا الاهتمام مجرد عَرَض من أعراض تلك « العقلية السطحية » التى كثيراً ما تعجز عن النفاذ إلى « الباطن » ، بل هو قد يكون فى بعض الأحيان تعبيراً عن روح « الخداع الذاتى » التى تتوهم أنها ما دامت قد نجحت فى إنقاذ « الشكل » ، فقد نجحت أيضاً فى إنقاذ « المضمون » ! والحق أننا قد نجد أنفسنا مضطرين أحياناً ــ بدافع من الحرص على إنقاذ المظاهر ــ إلى العمل على إخفاء عيوبنا ، ومداراة نقائصنا ، وإلقاء حجاب صفيق على مظاهر فشلنا !! وبدلا من العمل على مواجهـــة تلك النقائص بشجاعة وصراحة ، ترانا ــ فى بعض الأحيان ــ نسعى جاهدين فى سبيل تغطيتها تحت ستار من « التبرير الذاتى » ! ولعل هذا هو السبب فى أننا كثيراً ما نتفنن فى الظهور أمام الآخرين بمظهر مختلف تمام الاختلاف عن حقيقة أوضـــاعنا ، وكأننا نتوهم أنه ما دام « مظهرنا » قد بدا لهم مغايراً لـ « مَخبرنا » ، فقد نجحنا فى إخفاء حقيقة أمرنا عن عيونهم ! وليس الإسراف فى الاهتمام بالشكليات سوى عرض من أعراض ذلك « النفاق الاجتماعى »

الذى يفت فى عضد المجتمع العربى ، نتيجة لحرص معظم أفرادهم على « إظهار » غير ما « يبطنون » . ولماذا لا نقول إن جانباً غير قليل من فساد بعض أجهزتنا الإدارية راجع ـ فى صميمه ـ إلى مثل هذا التمسك الأجوف بالمظاهر ، و « الروتين » ، و « الشكليات » ؟ ألسنا نلاحظ ـ أحياناً ـ أننا قد نحرص على تطبيق القواعد واللوائح بـ « حرفيتها » ، دون أن نحاول احترام « روح » القوانين ، وكأن « المظاهر الخارجية » للنظام الإدارى هى كل ما يعنينا من هذا النظام ؟

... إن هناك عبارة مأثورة تقول : « الحرف يقتل ، وأما الروح فتُحْيى» . وأغلب الظن ـعندناـ أن الأفراد فى مجتمعنا قلما يأخذون بهذه العبارة ، فإنهم يتمسكون بالشكليات ، ويتعبَّدون للمظاهر ، لدرجة أنهم كثيراً ما يُضَحُّون بـ « الروح » فى سبيل « الحرْف » . وهذه العناية الفائقة بـ « الشكل » ، قد تتسبَّب أحيانا فى تحميل الدولة أعباء لا لزوم لها ، خصوصاً حينما يتم تعطيل الجهاز الإدارى (فى بعض المؤسسات أو الهيئات) بسبب الإسراف الزائد فى مراعاة بعض « اللوائح » أو « القوانين » . ومن العجيب أننا ـ فى العادة ـ أميل الشعوب إلى التساهل والتسامح (خصوصاً مع الذات) ، ولكننا ـ فى خشيتنا لتحمُّل أى ضرب من ضروب المسئولية ـ سرعان ما نستحيل إلى أهل تزمُّت وصرامة ، لمجرد حرصنا على احترام بعض القوانين الشكلية الخاوية ! وهذا « التزمُّت الشكلى » الذى لا موضع له ، قد يُكلِّفنا فى بعض الأحيان

الشيء الكثير ، دون أن نجتني من ورائه أي شيء ، حتى ولا النزر اليسير ! ولكن «المظاهر» البراقة هي التي تعمينا أحياناً عن رؤية « الحقائق » المستترة ، فلا نكاد نفطن إلى أننا نضحي بـ « الروح » في سبيل «الحرف» !. ولا علاج لهذه الظاهرة في رأينا — اللهم إلا بتعليم الفـــرد العربي — منذ نعومة أظفـــاره — أن « القـــانون » في خـــدمة « الإنســـان » (لا «الإنسان» في خدمة «القانون») ، وأن العبرة بـ «المضمون» لا بـ « الشكل » ، وأن من واجبه — بالتـــالي — أن يتحمل مسئوليته كفرد واعٍ يعرف كيف يحترم « روح » القانون ، دون الوقوف عند « حرفيته » !

ونحن نخلط أيضا بين « التسامح » و « التساهل »

صحيح أن الأخلاق العربية — في أصلها — أخلاق سمحة تتسم بالأريحية والتسامح ، ولكننا نلاحظ اليوم أن الكثير منا قد أصبح يخلط بين التسامح والتساهل ، فأدى ذلك إلى التهـــاون في أمور لا تحتمل التهاون ! وليس من شك في أن الانزلاق من « التسامح » إلى « التساهل » عملية سيكولوجية عادية تتم في ســـهولة ويسر ، ولكن الملاحظ — عندنا — أن « التبســـاهل » كثيرا ما يقترن بمظاهر « اللامبالاة » أو عدم الاكتراث . ومن هنا فإننا قد نستخف بأمور خطيرة لا يجوز فيها الاستخفاف ، كما أننا قد نتسامح ، دون أن نفطن إلى أننا بذلك نقوض أركان الحياة الخلقية لمجتمعنا تقويضا تاما ! والحق

أن الصرامة Rigorisme ، مطلب أخلاقى أساسى : لأن كل مجتمع يتساهل مع المجرمين والعابثين والخارجين على العرف أو القانون إنما هو مجتمع منحل متفكك يهدم نفسه بنفسه !.

وأما حين يقف المجتمع بالمرصـــاد لكل من تحدثه نفسه بالخروج على المعايير الجمعية ، أو الاستهتار بقيم الجماعة ، فهنالك يكون للأخلاق سند اجتماعى قوى يضمن للمجتمع ردع المخالفين ، وقمع المارقين . ولسنا نعنى أن مجتمعنا العربى قد أصبح يفتقر تماما إلى كل وعى أخلاقى ، بل كل ما نعنيه أن هذا الوعى الأخلاقى قد أصبح يخلط التسامح بالتساهل ، على نحو ما اعتاد الخــلط بين الاتكال والتواكل ! وهذا هو السبب فى أننا صرنا نختلق المعاذير للمارقين والمتمردين ، كما أصبحنا نجد دائما من « الظروف المخففة » ما يبرر استعمال الرأفة مع المجرمين والمنحرفين ! وفات حمــاة القانون ودعاة الأخلاق ـــ عندنا ـــ أنّ أى استثناء يتعرض له القانون ، أو أى شذوذ يخرق القاعدة الأخلاقية ، قد يكون هو الكفيل وحده بهدم هذا القانون أو تحطيم تلك القاعدة الأخلاقية . ولعل هذا هو السر فيما نلاحظه ـــ أحيانا ـــ فى بعض المجتمعــات العربية المعــاصرة من أن « الاستثناء » كثيرا ما يصــبح هو « القاعدة » ، وكأن « القانون » قد استحال ـــ بأسره ـــ إلى مجموعة من « الحالات الخاصة » التى لا تنطبق عليها « القاعدة العامة » .

ولسنا نريد أن نسهب فى ضرب الأمثلة التى تشهد على أن

« التسامح » عندنا قد استحال إلى « تساهل » ، وإنما حسبنا أن نقول إن المتأمل فى أجهزتنا الادارية يجد الآلاف من الأمثلة على هذا التهاون الصارخ الذى ليس من التسامح فى شىء !

وسواء اتجهنا بأبصارنا نحو الموظف ، أو نحو الطالب ، أو نحو العامل ، أو نحو المثقف ، (وغير هؤلاء) ، فإننا لن نجد — فى معظم الأحيان — سوى نماذج مختلفة لهذا « التهاون » الذى تمليه على الناس روح الاستخفاف بالمسئولية ، والتساهل مع الذات ، وعدم الاكتراث بمصالح الاخرين . وأنت تعجب حين تجد كل هؤلاء يروحون ويغدون ، بكل أمن واطمئنان ، دون أن يلقوا آية عقوبة أو جزاء ، ولكنك لن تلبث أن تعرف السر فى هذا « التسامح » الذى تلقاهم به الجماعة : فإن « الوعى الأخلاقى » عندنا قد أصبح وعيا زئبقيا سهلا لا يتسم بأية صورة من صور « الصرامة » . ولا شك أن هذه « السهولة » — أو هذا « التساهل » — إنما هو الدليل الأكبر على أننا لم نعد نقف بالمرصاد لأهل الفساد الخلقى ، بل صرنا نتهاون فى أبسط — وأخطر — واجباتنا الخلقية : ألا وهى واجبات حماية القانون ، ورعاية الأخلاق . ولن يتسنى لنا تحقيق أى شكل من أشكال « التكامل الأخلاقى » أو الاجتماعى اللهم إلا إذا استعدنا أولا وقبل كل شىء روح الصرامة الأخلاقية .

وإذا كانت سنة الحياة ــ فى كل زمان ومكان ــ هى الأخذ والعطاء . فإنها ــ عندنا ــ الأخذ ، دون العطاء ، وآية ذلك أنك تسمع اليوم عن مطالب العمال ، وحقوق الطلبة ، (وغير هؤلاء وأولئك من فئـات الشعب) ، ولكنك قلما تسمع عن واجبات العمال ، أو التزامات الطلبة ! وقد لا نبالغ إذا قلنا إننا جميعا ــ فى مجتمعنا العربى المعاصر ــ نطالب بحقوقنا ، ولكننا قلما نفكر فى واجباتنا !! وأغلب الظن أن يكون مفهوم الواجب نفسه قد أصبح عندنا تصورا خاويا من كل مضمون ، إن لم نقل أنه قد أصبح أثرا بعد عين ! وما يزال كاتب هذه السطور يذكر كيف كان طلبته فى الجامعة يجدون فى فلسفة «كانْت» Kant الخلقية . مجرد فلسفة خيالية وهمية ، لا لشىء إلا لأن صاحبها كان يقدس الواجب . وينادى بأداء الواجب بدافع من احترام الواجب فى ذاته ولذاته . واليوم ما يزال مجتمعنا العربى فى حاجة ماسة إلى الأصـوات المخلصة التى تدعو إلى تقديس الواجب بوصفه القانون الأخلاقى الأوحد . ولن يصبح المجتمع العربى مجتمعا إنسانيا ــ بحق ــ اللهم إلا يوم يدرك أهله أن « الواجب هو الذى يميز مملكة الإنسان ــ باعتبارها مملكة الحرية ــ عن مملكة الطبيعة ــ باعتبارها مملكة الضرورة ــ .» وإلا فهل قامت لأى مجتمع قائمة ، إن لم يكن قد اتخذ من « الواجب » الدعامة التى يسـتند إليها كل حكم أخلاقى ، والأساس الذى يقوم عليه كل تقدير عملى ؟

ومفهوم «النظام» : أتراه أيضا قد اختفى من حياتنا الاجتماعية ؟

وثمة مفهوم أخلاقى آخر قد تراجع عندنا أيضا ، تحت تأثير تراجع مفهوم « الواجب » ، ألا وهو مفهوم « النظام » . والحق أن الأخـلاق ـ فى جانب من جوانبهـا ـ تعبير عن « الالتزام » ، و « الالتزام » وثيق الصلة بمعنى « النظام » . وأنت حين تلقى نظرة على معظم مرافق حياتنا الاجتماعية ، فإنك تجدها بلا شك حافلة بأسباب الفوضى والاضطراب والاختلال . وقد لا تخلو حياتنا الخاصة أيضا من مثل هذه الفوضى : لأننا نشأنا على الاستهانة بكل قاعدة ، والاستخفاف بكل نظام ! وأعجب ما فى الأمر أن أطفالنا قد يجدون أحيانا ضربا من اللذة فى الخروج على النظام ، أو الاستهتار بالأنظمة الموضوعة ! ومثل هذه المتعة التى يجدها أطفالنا فى الفوضى إنما هى الدليل القاطع على أنهم قد أُشربوا ـ منذ نعومة أظفارهم ـ « حب المخالفة » ! وقد تكون هناك ميول عدوانية مكبوتة ، تكمن من وراء هذه النزعة التمردية نحو « الخروج على النظام » ، ولكن من المؤكد أن « حب الفوضى » هو صورة من صور « التفكك الأخلاقى » الذى يجعل من كل فرد منا « ذاتا » منعزلة تعمـل لحسابها الخاص ، دون أن تعير الآخـرين أى اهتمام !

وليس من شك فى أن اختفاء النظام من حياتنا الاجتماعية (فى الظاهر ، على الأقل) يخلق من مجتمعنا مجتمعا فوضويا

لا خلاق له ! ولكن اختفاء النظام من حياتنا الفردية هو الذى يولد لدينا ضربا من الاضطراب الخلقى ، وكأن فى وسع أى فرد منا أن يفعل ما يشاء كيفما شاء ! وعلى حين أن «الأخلاق» ، تمثل الوحـدة والتكامل والاتسـاق ، نجد أن اللاأخـلاقية Immoralism ، تمثل فى العادة التوزع والتفكك والانحلال . وهذا ما يدفعنـا إلى القول بأن جانبا غير قليل من انحـلالنا الأخلاقى ، مرجعه إلى قلة اهتمامنا بالنظام ، وتزايد استهتارنا بالقانون ! وهل كانت اللاأخلاقية إلا صورة من صور الاستباحة والفوضى ؟!

هل يكون مجتمعنا العربى « مجتمع رجال » فقط ؟ !

على أن هناك سمة أخرى بارزة تكاد تسم بطابعهـا كل سلوكنا الأخلاقى أو جلّه ، وتلك هى سـمة الاهتمام الزائد بمسائل الجنس . حتى لقد أصبح « الجنس » عندنا ــ على حد تعبير علماء النفس ــ « حصارا » أو « وسواسا » obsession فالشاب العـربى ــ مثلا ــ لا يكاد يقرأ سـوى الروايات الجنسية . والأفلام الرائجة عندنا لا تكاد تعدو أفلام الجنس ، والأحاديث الجارية بيننا تكاد تدور فى معظمها حول النساء ، والنكات المتداولة بيننا هى فى الغالب نكات جنسية أو فكاهات بذيئة ، وهلم جرا .. وقد يكون السر فى هذا الاهتمام المفرط بمسائل الجنس هو حالة القمع ، أو الكبت ، أو الحرمان ، التى ما تزال سائدة فى معظم مجتمعاتنا العربية ، ولكن من المؤكد

أيضا أن القيم الأخلاقية عندنا قد بقيت فى معظمها قيما جنسية ترتبط بمسائل « الرجولة » ، و « الفحولة » .. إلخ .

وعلى الرغم من أن الفتاة العربية قد اقتحمت ميدان التعليم، وغزت الجامعــات ، وخرجت إلى ميدان العمــل ، وأصبحت تشارك الرجل أعبــاء الحياة الاجتماعية ، إلا أن المرأة العربية ــ مع ذلك ــ قد بقيت « موجودا هامشيا » (إن صح هذا التعبير) لا يقوم بدور ايجابى فعال فى صميم التكوين الخلقى لمجتمعنا الحالى . وآية ذلك أن المجتمع العربى ما يزال مجتمع ر جال فقط ، لا مجتمع رجال ونساء معا !!

وحسبنا أن ننظر إلى التنظيم الاجتماعى السائد فى معظم الأقطار العربية ، لكى نتحقق من أنه تنظيم متخلف يكاد يسقط من حسابه حقوق المرأة وواجباتها . بل إننا حتى لو نظرنا إلى البلدان العربية المتقدمة التى أصبحت تفسح للمرأة مجالا واسعا للعمل الملائم لها ، فإننا قد نلتقى بنساء عاملات يقضين معظم أوقاتهن فى الثرثرة ، أو أشغال الإبرة ، أو غير ذلك من الأعمال النسوية التى ألفنها داخل جــدران البيوت ! والحق أن المرأة العربية ما تزال تطالب بحقوقها ، ولكنها قلما تفكر فى واجباتها !

وفضلا عن ذلك ، فقد دلتنا التجربة على أن ثمة قيما أخلاقية وجمالية تقترن فى العادة بقيام المرأة فى قلب المجتمع ، ولكن مثل هذه « القيم » ــ حتى فى المجتمعات العربية المتقدمة ــ ما تزال مفقودة أو منعدمة ! والواقع أنك لا تجد فى المجتمع العربى من مظاهر الذوق ، والرقة ، والدماثة ، وحسن المعاملة وطيبها ،

ما يشهد بوجود نســاء عربيات قد خرجن إلى ميــدان الحياة الاجتماعية ! وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن معظم العلاقات الاجتمــاعية عندنا ما تزال تقوم على الخشــونة ، والغلظة ، والقسوة ، والفظاظة .. إلخ ، وكأن يد المرأة ــ وفيها الرحمة والحنان ، وفيها العزة والاباء ــ لم تمتد بعد إلى صميم حياتنا الاجتماعية !

* * *

وبعد ، لقد حاولنا فى هــذا العرض السريع لأهم سماتنا الخلقية ، أن نبرز المآخذ والعيوب ، أكثر مما اهتممنا بإظهار المحــاسن والمزايا . وربما كان لنا بعض العــذر فى ذلك : فقد أصبح « النقــد الذاتى » اليوم أهم بكثير عندنا من التفاخر بالأمجاد التليدة ! وقد يأخذ علينا القارىء أننا شخصنا الداء (وهو معروف) ، دون أن نصف الدواء (وهو الأهم) ولكن ردنا على ذلك أن تشخيص الداء هو الخطوة الأولى على درب الشفاء .

أخلاقنا في حاجة إلى إصلاح

إذا كنا قد حاولنا — فيما سبق — أن نشخِّص الداء ، فقد صار لزاما علينا — الآن — أن نصف الدواء . ولا بد لنا من أن نعترف — بادىء ذى بدء — بأن « الإصلاح الخلقى » أعسر بكثير من أى ضرب آخر من ضروب الإصلاح · فإن تغيير عقول الأفراد أشقّ من تغيير دُخُولهم ، أو إن شئت فقل : إن التحكم فى جيوب الناس أيسر من التحكم فى قلوبهم ! وقد يستطيع رجل الاقتصاد أو عالم الاجتماع أن يدخل بعض التعديلات على أنظمة الجماعة الاقتصادية أو الحضارية ، ولكنه لن يضمن — عن هذا الطريق — إحداث تغير ملموس فى أخلاق الناس وأنماطهم السلوكية ، اللهمَّ إلا إذا كانت عقول الناس وأفئدتهم قد تهيأت لمثل هذا التغيُّر الأخلاقى — تحت تأثير عوامل أخرى متعددة — بحيث يستجيبون لدعوة الإصلاح .

والواقع أن « الظاهرة الخلقية » ظاهرة إنسانية نَوعيَّة · تتميز عما عداها من ظواهر بشرية أخرى ، ولكنها فى الوقت نفسه « ظاهرة اجتماعية » ديناميكية ، تخضع — كغيرها من

الظواهر الاجتماعية الأخرى — لسُنّة التطور ، ومن ثم فإنها تقبل التغيُّر ، وقد يطرأ عليها ضرب من التقدم أو التأخر .

ومن هنا فإن « الإصلاح الخلقى » لا يدخل فى باب المستحيل ، وإنما هو صورة من صور التطوُّر المقصود — أو التغيُّر المراد — الذى يعمل المصلحون على تحقيقه ، عن طريق بعض الوسائل العملية الفعّالة . والمهم أن يهتدى المصلحون الأخلاقيون الى هذه الوسائل العملية الفعالة التى تكفل لمجتمعاتهم السير على دَرْب « الترقى الخلقى » ، حتى لا تستحيل « أدواء » المجتمع إلى « عادات » ثابتة ، فيصبح من المتعذَّر — أو المستحيل — العمل على استئصال شأفتها . ولا شك أن النقائص الأخلاقية التى تتخذ طابع الأنماط السلوكية المتحجرة ، هى فى العادة ظواهر اجتماعية جامدة ، قد لا يسهل اقتلاعها من جذورها ، ولكنها — مع ذلك — وقائع بشرية يمكن التأثير عليها والعمل على مواجهتها فى عقر دارها !! ونحن لا ننكر أن الصلة وثيقة بين الظاهرة الخلقية وغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى — وفى مقدمتها الظاهرة الاقتصادية — ولكننا نرى فى الوقت نفسه أن تغيُّر الأحوال الاقتصادية فى مجتمعنا العربى لا يمكن أن يكون هو الكفيل وحده بحل سائر مشكلاتنا الاجتماعية والأخلاقية . فالإصلاح الخلقى أمر لا يمكن أن يتحقق من تلقاء نفسه ، وكأنما هو مجرد نتيجة حتمية تترتب بالضرورة على تحسُّن أحوالنا الاقتصادية ، وإنما هو ثمرة لما نبذل من جهود إيجابية فى سبيل العمل على

خلق « مجتمع جديد » . ولعل هذا هو السبب فيما دعونا إليه دائما من ضرورة مواجهة المشكلة الخلقية عندنا بطريقة صريحة مباشرة ، دون الاقتصار على مواجهتها من خلال بعض الظروف الاقتصادية أو المادية .

لا بد ــ أولا ــ من العمل على تربية المربي نفسه !

ولو أننا حاولنا ــ الآن ــ أن نتلمَّس الوسائل العملية الفعالة للتأثير على « الظاهرة الخلقية » ، لكان علينا أن نمضى إلى الأصول الجذرية للفساد الخلقى الذى نشكو منه ، ومن ثم فإنه لا بد لنا من تغيير أساليبنا التربوية ، حتى ننمِّى لدى الأفراد « الوعى الخلقى » أو « الإحساس بالقيم » . ولن يتسنى لنا تحقيق مثل هذا « التغير » ، اللهم إلا إذا شرعنا فى خلق جيل جديد من « المربِّين » . وهنا تتضح لنا الصلة الحقيقية للأخلاق بالتربية : فإن الوظيفة الأولى للمربِّى هى العمل على تفتيح ذهن الطفل ــ أو الحدَث ــ للقيم الخلقية . وكلما زادت حساسية المربى نفســه للقيم ، كان تأثيره الخلقى على النشء أقوى وأفعل . والحق أن الخطوة الأولى على درب « الإصلاح الخلقى » ، إنما تكون بالعمل على تربية المربِّى نفسه ، حتى يصبح أهلا لتربية النشء . وقد لا نبالغ إذا قلنا إن كل جانب من جوانب الحياة الأخلاقية للمجتمع رهن" بالقائمين على شئون التربية : فإن هؤلاء ــ وهؤلاء وحدهم ــ هم الذين يضطلعون بمهمة تنمية الإحساس بالقيمة « أو القيم » لدى الطفل . ولما

كانت « الأخـــلاق » ظاهرة عملية تتصل بالقدوة أكثر مما تتوقف على التعليم ، فإن التدقيق فى اختيار القائمين على شئون التربية شرط ضرورى لتوافر جيل سليم من الأبناء الصالحين .
وإذا كانت مهنة التعليم « أو التدريس » قد بقيت حتى الآن مهنة ســـهلة يُقبـــل عليهـــا الكثيرون من المتخصّصين وغير المتخصّصين، فقد آن لنا الأوان ــ اليوم ــ لأن نفطن إلى خطورة هذه المهنة ، وأهمية الدور الذى يضطلع به أربابها فى خلق جيل جديد من الشباب الواعى ، المتفتح ، المتبصّر ، المؤمن بالقيم الخلقية والروحية ...

ضرورة تنمية الوعى الخلقى لدى الأفراد والجماعات

إننا ننسى ــ أو نتناسى ــ فى كثير من الأحيان أن « الوعى الخلقى » ليس هبَة فطرية تجود بها الطبيعـــة على قوم دون قوم ، أو فرد دون آخر ، بل هو عادة مكتسبة يُحصّلها الأفراد والجماعات ــ تحت تأثير التربية والقدوة الصالحة ــ وحينما يدقق المجتمع فى محاسبة أفراده ، وحينما يرفض الأفراد أنفسهم مبدأ التســـاهل مع الذات (ومع الآخرين) ، فهنالك تجىء الصرامة الخلقية لتزيد من إحساس الأفـــراد بالقيم ، وتنمّى لديهم روح التمسّك بالمبادىء الأخلاقية . ومعنى هـــذا أن المشرّع العربى يسلك ــ إلى حدٍّ كبير ــ تنمية الوعى الخلقى لدى الأفراد والجماعات : لأنه يستطيع فرض العقوبات على كل جرائم الإهمال والتهاون ، فيخلق بذلك جواً روحيا مواتيا

لأخلاق الصرامة وعدم التساهل مع الذات . وليس من شك فى أن جانبا غير قليل من الفساد الخلقى السائد فى مجتمعاتنا العربية ـــ كما قلنا فى مقال سابق ـــ إنما يرجع إلى تفشى روح التساهل ، وانتشار مبدأ التهاون (مع الذات ومع الآخرين) . فلا بد لنا اليوم من العمل على تنمية روح الصرامة الخلقية ، حتى لا يبقى مجتمعنا ـــ كما عُرِف عنه فى الشرق والغرب معا ـــ مجتمعا متساهلا متهاونا يحكمه مبدأ مَعَلِهْش (١) (= ما عليه شىء) !! ولهذا فإن « الإصلاح الخلقى » متوقف ـــ إلى حدٍّ كبير ـــ على نموٍّ « الوعى الخلقى » ، وتزايد حظ الأفراد (والجماعات) من « الصرامة الأخلاقية » .

دور « الجزاء » فى تأصيل جذور « الأخلاق »

صحيحٌ أن الأخلاق لا تُفْرَض على الأفراد بقوة القانون ، ولكن من المؤكد ـــ مع ذلك ـــ أن الظاهرة الخلقية ـــ مثلها فى ذلك كمثل الظاهرة القانونية ـــ تخضع لنظام المكافآت والعقوبات . وقد يكون من واجب المصلح الأخلاقى (على الأقل فى المرحلة الأولى من مراحل الإصلاح الخلقى) العمل على تثبيت دعائم القيم بالالتجاء إلى أساليب التشجيع

---

(١) لقد أصبحت هذه الكلمة علما على المجتمع العربى ، حتى أن الكاتب الفرنسى چان كوكتو Jean Cocteau أطلق على كتابه الذى وصف فيه جولته فى ربوع البلاد العربية ، اسم «معلهش» : Mâleche

والعقاب . حتى يعرف الجميع أن المصيب لا بد من أن يثاب ، وأن المخطىء لا يمكن أن ينجو من العقاب . وهنا قد يقال ان أداء الفرد لواجبه لا بد من أن يصدر عن باعث أخلاقى صرف (دون ان يكون هناك أى حافز آخر يدفعه إلى ذلك) ، ولكن أهل التربية يعلمون أن الطفل يحتاج — فى مستهل حياته الخلقية — إلى الكثير من مظاهر التشجيع ، حتى يكتسب عادة أداء الواجب ، والإقبال على فعل الخير . ونحن — بالمثل — لا نفطن إلى أن « الفضيلة جزاء لنفسها » (على حد تعبير اسبينوزا Spinoza . اللهم إلا فى مرحلة متأخرة من مراحل ترقينا الخلقى . ومن هنا فإنه لا بد للمصلح الأخلاقى من الاستعانة بنظام الثواب والعقاب ، من أجل تأصيل الأخلاق فى سلوك الأفراد . آملا أن يتمكن يوما من تحويل «العادات السلوكية» إلى « مبادىء أخلاقية » ، بحيث يصدر الأفراد فى سلوكهم عن إيمان عميق بالقيم ، لا خوفا من عقاب ، أو طمعا فى ثواب .

ضرورة الاهتمام باختيار القادة وأهل الريادة

بيد أننا نلاحظ — مع الأسف الشديد — أن المشرفين على أنظمة الجزاء ، كثيرا ما يسيئون استخدام سلطتهم ، فلا يَحْظَى المصيب بثوابه ، ولا يَلْقَى المخطىء عقابه ! والسبب فى ذلك أننا قلما ندقق فى اختيار القادة وأهل الريادة ، ومن ثم فإننا نضع على قمة أجهزتها الإدارية نفوسا ضعيفة يفتقر أصحابها إلى الكثير من العفة ونقاء الضمير ! ونحن لا ننكر أن

« انتقاء القادة » أمر عسير — فى كل زمان ومكان — ولكن المجتمعات المتقدمة لا تترك هذه العملية نهبا للصدفة (حتى تتدخل فيها اعتبارات المحسوبية والتفضيل الشخصى وغير ذلك) ، بل هى تلتجىء إلى أساليب « الاختيار المهنى » من أجل انتقاء القادة الصالحين . ومعنى هذا أن هناك طرقا سيكلوجية حديثة (تستند إلى بعض الاختبارات العلمية الدقيقة) يمكن عن طريقها التحكم فى عملية اختيار القادة والروّاد وغيرهم من أهل المراكز الكبرى ، حتى لا يوضع على رأس أى جهاز إدارى سوى الرجل الكفء ، اجتماعيا ، وأخلاقيا ، ومهنيا .. إلخ .

والحق أنه لا بد لنا اليوم — فى مجتمعنا العربى المعاصر — من وضع الأنظمة الكفيلة باختيار القادة ، والروّاد ، وأهل المسئولية من أصحاب الخلق ، وأهل الكفاءة ، وأرباب القيم . ولا شك أننا حين نضع على رأس كل مركز اجتماعى هام ، رجلا صالحا ، اشتهر بين الناس بحبه للفضيلة ، وتعلّقه بمكارم الأخلاق ، فإننا بذلك نقدم للناس قدوة صالحة يترسّمون خطاها ، ويحذون حذوها . وليس أفسد للحياة الخلقية — فى أى مجتمع من المجتمعات — من أن يكون القائمون على رعاية الآداب ، وحماية الأخلاق — فى هذا المجتمع — أناسا منحلّين عرفوا بفساد ذممهم ، وخراب ضمائرهم ! وإذن فلا قيام للاصلاح الخلقى ، بدون رجال صالحين ومصلحين ، يكونون — على حدّ تعبير عيسى عليه السلام — « مِلْح الأرض » الذى — بدونه — لا يكون للتربة الاجتماعية صلاح !

وإذا كان قد وقع فى ظن البعض أنه لا شأن للدين بالأخلاق . فقد يكون من واجبنا ــ على العكس من ذلك ــ أن ننبّه إلى ضرورة الاهتمام بإحياء الروح الدينية ، من أجل العمل على تثبيت دعائم القيم الأخلاقية . وحينما قال رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ قولته المأثورة : « إنما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » . فإنما كان يكشف لنا بذلك عن الصلة الوثيقة التى تجمع بين كل من الدين والأخلاق . صحيحٌ أن الناس كثيرا ما ينسون أن « الدين هو المعاملة » ، وأن الروح الدينية الحقة إنما هى الإرادة الخيّرة . ولكن هؤلاء يجهلون قول الرسول الكريم : « ما من شيء يوضع فى الميزان ، أثقل من حسن الخلق . وإن صاحب حُسْن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » .. وإذن فإن الروح الدينية ــ على الحقيقة ــ إنما هى الحساسية المرهفة بالقيم ، والسلوك الخيّر النابع من حب البر . ولعلّ هذا ما حدا بالكثير من المصلحين الأخلاقيين إلى ربط القيم الأخلاقية بالقيم الدينية ، اعتقادا منهم بأن هذه وتلك « قيم روحية » لا تزدهر إلا فى الأوساط الاجتماعية المتكاملة . حيث تقوم « المحبة » بين الناس مقام « القانون » .

ضرورة وضع وسائل الاعلام فى خدمة الأخلاق

ولا بد لنا أيضا من استخدام شتى وسائل الإعلام المتوافرة لنا ، من أجل العمل على نشر القيم الأخلاقية ، وتثبيت دعائم الحياة الروحية السليمة . صحيح أننا كثيرا ما نتوهم أن « الحرية » هى « الاباحية » ، ولكن من المؤكد أن إفساح المجال أمام الأفلام الساقطة ، والروايات البذيئة ، والكتب الخليعة ، ليس من « الحرية » فى شىء . فنحن نسىء إلى شبابنا ، ونخطىء فى حق أجيالنا المقبلة ، حين نضع بين أيديهم تلك السموم الخبيثة التى لن يكون من شأنها سوى أن تهوى بهم إلى قاع الرذيلة ! ولسنا نجهل أن الكثير من حملة الأقلام عندنا أصبحوا يجدون فى مسألة الجنس تربة خصيبة لانتزاع اهتمام الشباب ، وتكوين ثروات طائلة على حساب المساكين من الأغرار والسذج ، ولكن فى استطاعة وسائل الإعلام – عندنا – أن تتناول هذه المسائل بالبحث العلمى الدقيق ، والعرض الأخلاقى السليم ، بدلا من أن تتركها نهبا لأصحاب الأقلام الرخيصة من الانتهازيين والطامعين ! ولا شك أننا حين نبرز الجانب الروحى العميق الذى يكمن من وراء شتى مسائل الجنس ، فإننا نسهم بذلك فى القضاء على الكثير من الأوهام الخاطئة التى قد يقع شبابنا صرعى لها ، نتيجة لجهلهم بحقيقة الجنس ، وطبيعة الدور الذى يقوم به كل من الجنسين فى الحياة البشرية . وربما كان من واجب القائمين على شئون

التربية فى المدارس والمعاهد والجامعات ، العمل على توفير الأفلام العلمية الناضجة ، للأجيال المقبلة من الذكور والاناث ، حتى لا يُقْبلوا — من بعد — على وظيفة الأبوة أو الأمومة ، وهم يجهلون الكثير من الحقائق الفسيولوجية والسيكولوجية الأساسية التى تقوم عليها « الحياة الزوجية » . ومعنى هذا أنه لا بد من استخدام وسائل الإعلام العربى ، لا لخدمة القضايا السياسية وحدها ، بل لخدمة القيم الأخلاقية والروحية أيضا . وقد يكون من مصلحة الاعلام السياسى نفسه ، أن يقوم على رأسه جماعة من أهل مكارم الأخلاق ، يعرفون كيف يوجّهون الاعلام السياسى توجيها أخلاقيا رفيعا .

دور المرأة العربية فى الاصلاح الخلقى

... لقد شاء بعض الفلاسفة أن يستعينوا فى فهمهم لطبيعة كل من الرجل والمرأة بتشبيه مستمد من نظرية العناصر الأربعة ، فقالوا إن الرجل هو النار أو الهواء ، فى حين أن المرأة هى الماء أو التراب . وعلى حين أن النار تمثل الحركة أو الاندفاع ، نجد أن التربة تمثل الاستقرار أو الثبات . وقال آخرون إن المرأة أشبه ما تكون بالزهرة أو النبات ، فى حين أن الرجل أشبه ما يكون بالحيوان ! وعلى حين أن النبات — كما نعلم — يتصف بالاستقرار والتأصل فى التربة ، نجد أن الحيوان يعشق التنقل ويهوى الحركة . فالمرأة تمثل الطبيعة النباتية التى تتصف بالهدوء والسكينة وحب الاستقرار ، فى حين أن الرجل يمثل

الطبيعة الحيوانية التى تتصف بالحركة والتنقــل والميل إلى الاقتناص ! ولهذا فقد قال بعض الفلاســفة : إن المرأة هى الموجود الذى هو فى صميمه « طبيعة » ، فى حين أن الرجل هو الموجود الذى هو فى جوهره « فِعْل » . وعلى حين أن الرجل يعبِّر عن التاريخ والزمان والصيرورة المستمرة ، نجد أن المرأة تعبِّر عن حَضْرة « الأبدية » فى الزمان !

وعلى ضوء هذه التفرقة الثنائية بين الجنسين قد يكون فى وسعنا أن نهتدى إلى تحديد دور المرأة فى الإصلاح الخلقى . والواقع أن الأخلاق — فى جانب من جوانبها — مظهر للنظام والثبات والاستقرار ، فليس بدْعا أن يكون للمرأة — وهى المخلوق الذى يتسم بالهدوء والسكينة وحب الاستقرار — دور كبير فى تأصيل القيم الأخلاقية ، وترسيخ المبادىء الروحية . وقد دلتنا التجربة على أنه حينما تضطلع المرأة بدورها الحقيقى فى التنظيم الاجتماعى ، فإنها تُسهم — إلى حد كبير — فى نشر الوعى الخلقى ، وتنمية الروح الدينية ، وتثبيت دعائم القيم الروحية . وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن فتح المجال أمام المرأة العربية للقيام بدور ايجابى فى تربية النشء وتوعية الجماهير « أخلاقيا واجتماعيا » ، لا بد من أن يؤدى — إن عاجلا أو آجلا — إلى رفع المستوى الأخلاقى للأفراد والجماعات فى سائر أرجاء الوطن العربى . فلا بد لنا — إذن — من دعوة المرأة العربية إلى القيام بواجبها — فى مضمار الإصلاح الخلقى — حتى يتسنى لنا أن نخلق جيلا واعيا من الرجال والنساء :

جيلا يعرف قيمة الجهد ، ويؤمن بضرورة العمل ، ويجزع من كل مظهر من مظاهر السهولة أو التساهل ، ويدرك أن مستقبل أمته مرهون بتكاتف الجميع من أجل خلق «المجتمع الصالح» .

كلمة أخيرة ...

ويبقى أن نقول إن « الإصلاح الخلقى » تعبير عن « إرادة التغيير » التى لا ترضى عن الواقع الحالى ، بل تتطلع إلى مستقبل اخلاقى أفضل . وليس من شك فى أننا ــ جميعا ــ نشعر باستياء بالغ ، لما فى مجتمعنا العربى الراهن من مفاسد أخلاقية . ولكن هذا الشعور لا يزيد عن كونه مجرد خطوة على درب الإصلاح ، (ولو أنها خطوة أولية ضرورية لا بد منها لكل إصلاح) . فلا بد لنا ــ إذن ــ من أن نتبع هذه الخطوة بخطوات ، حتى لا تبقى رغبتنا فى الإصلاح مجرد « حلم » أو « أمل » أجوف ! وحينما تصح النيات على القيام بجهود ايجابية فعالة فى سبيل السير على درب « الترقى الأخلاقى » . فهنالك لا بد للمصلحين الأخلاقيين من أن يعرفوا طريقهم إلى تنفيذ مخططاتهم الإصلاحية ، واثقين من أن الخطوة الأولى على طريق الأخلاق هى الإيمان بقيمة الأخلاق !

دور الشباب في معركة الإصلاح :

« الإصلاح » معركة ضد « التخلف » فى جميع صوره . والمعارك ـ بطبيعتها ـ أعباء تقع على كاهل الشباب . والشباب ـ عندنا ـ فائر متحمس ، فهو يبدى استعداده لمواجهة كافة المعارك فى الداخل والخارج على السواء ! إنه يعرف أنّ عليه تقع مهمة كل من « الجهاد الأصغر » و « الجهاد الأكبر » . وهو ثائر على شيوخ مجتمعه ، لأنه يظن أنهم هم الذين قادوه إلى الهزيمة ! ولذلك نراه يقول على لسان أحد مفكريه : « إنّ هذا المجتمع يفضل كبير السن على حديثه ، والشيخ على الشاب ، بمعزل عن الكفاءات التى يتمتع بها كلٌ منهما ، وكأنّ مجرد البقاء على قيد الحياة يرفع من شأن الإنسان ، أو يكسبه حقوقاً معينة ، بغضّ النظر عما أنجزه أو حققه . وقد كشفت حرب حزيران (يونيه) سنة ١٩٦٧ عن عدد كبير من الشخصيات فى المراكز الحساسة العسكرية والعلمية والتقنية ، كان رصيدها الوحيد ومبرر بقائها ، مرور الزمن والقدم واحترام السن والمركز والقدر والمقام ، بينما كان ينبغى أن يتولى أمور هذه

المراكز أفراد يتمتعون بشخصيات لا تقيم وزناً فى عملها إلا للنتائج الإيجابية الفعالة ، أى للإنجاز والكفاءة والإنتاج الملموس فحسب . » [1] .

وهذا شاب مصرى لما يتجاوز الثامنة عشرة من عمره يقول على لسان إحدى شخصيات كاتب مصرى معروف : « إن الدنيا ليست فى حاجة إلى الرجل بعد أن يبلغ سن الأربعين ! .. إنه يصبح بعد هذه السن عالة على الدنيا ... عالة على التقدم الذى ينشده الإنسان ... إنه يفكر بعقلية الماضى ... ماضيه ... ويفكر كأن الدنيا قد وقفت نهائيا ... وأن الطريق قد انتهى ... وهو يريد أن تقف كل الأجيال التى تجىء بعده ، فى نفس النقطة التى وقف عندها ... وهو يفعل ذلك بسلامة نية ، لأنه هو نفسه يعتقد أن الطريق قد انتهى ... وأن البشرية قد وصلت إلى حافة الأفق ... » [2] !

... إن الشاب العربى ـ اليوم ـ يشعر بأنه قد أصبح لزاماً عليه أن يتخطى ماضيه ، ويتجاوز واقعه ، ويبتكر الحلول الجديدة لمشاكل مجتمعه القديمة ، ولذلك فإنه يثور على شيوخ وطنه ؛ لأنهم يفضلون دائما انتهاج الطرق المتعارف عليها ؛ والتقوقع داخل بعض القوالب التى ألفوها وأصبحوا يرتاحون

---

(١) د. صادق العظم : « النقد الذاتى بعد الهزيمة » ، بيروت ، دار الطليعة ، الطبعة الثانية ، مارس ١٩٦٩ ، ص ٨٥

(٢) احسان عبد القدوس : « بنت السلطان » ، القاهرة ، دار الهلال ، قصة « سأترك بيتى » ، ص ٢٢٩

إليها ! وهو يحمّل هؤلاء الشيوخ مسئولية تخلّف مجتمعه : لأنهم — فى رأيه — يَصدُرون فى كل سلوكهم عن ذلك النمط البالى من أنماط الحياة التقليدية الاتباعية ، « حيث تتوجه أنظار الأفراد وأفكارهم وردود فعلهم نحو التقاليد العريقة ، والسنن السلفية المتوارثة ، مما يجعل الفرد فى مثل هـذه المجتمعات إنسانا محافظاً ، عقلا وجسداً ، يدور دوماً فى فلك محدود هو فلك اتباعى يبقى القديم على قدمه ، ويحافظ عليه لينقله إلى أبنائه . » . وهكذا تقترن « الشيخوخة » — فى نظر الشباب العربى — بمعانى البطء ، والعجز ، والميل إلى التقليد ، والتقيّد بالقوالب الجاهزة ، والالتصاق بالتراث القديم ، والابتعاد عن الابتكار ، وعدم القدرة على القيـام بالمبادرة السريعة ... إلخ . ولعل جانباً غير قليل من ثورة الشـباب العربى — فى وقتنا الحاضر — مجرد تعبير عن ضيق الجيـل الجديد بقيم الماضى التى هى (فى رأيهم) موطن الداء ، وأصل البلاء !!

ليس « الجديد » صحيحا لمجرّد انه « جديد » !

بيد أن المسألة — فى رأينا — ليست مسألة شباب وشيوخ ، أو جديد وقديم ، بل هى فى الواقع مسألة تقدم أم تخلف ، صلاح أم فساد . وليس من الحكمة فى شىء أن تتصور إمكان قيام مجتمع ما على « الجديد » وحده ، أو على « الإبداع » وحده ، فإنه لا بد لكل مجتمع من « جديد » و « قديم » ؛

من « إبداع » و « اتباع » . بل قد يكون من خطل الرأى أن تتصور إمكان قيام « ثورة » لا تستند إلى ركيزة من « نظام » ، أو إمكان حدوث « تغيير » لا يقوم فوق خلفية من « الثبات » أو « الاستقرار » [١] . ومن هنا فإن من العبث ربط الإصلاح بعملية إحلال « الجديد » محل «القديم» ، أو عملية استبدال « الشباب » بـ « الشيوخ » ! وما أصدق الفيلسوف الإنجليزى الكبير وايتهد حينما كتب يقول (فى معرض الحديث عن مهمة الجامعات) : « إن الشباب ــ بطبيعته ــ صاحب مخيلة واسعة . ولو قدّر للخيال ــ عن طريق التنظيم ــ أن يكتسب ضرباً من القوة ، لصار فى الإمكان الاحتفاظ بطاقة الخيال ــ خلال كل مراحل العمر ــ حية نابضة . وقد تكون مأساة هذا العالم أن الذين يتمتعون فيه بموهبة الخيال ، لا يملكون سوى خبرة ضئيلة ، فى حين أن أولئك الذين تمرّسوا فيه بخبرات الحياة ، لا يكادون يملكون سوى أخيلة قاصرة ضعيفة ! وعلى حين أن الحمقى يتصرفون بدافع من الخيال ، دون أدنى معرفة ، نجد أن المتحذلقين يتصرفون بوحى من المعرفة ، دون أدنى خيال ! والمهمة التى تقع على عاتق أية جامعة هى أن تمزج كلا من الخيال والخبرة ، بحيث تصهرهما فى بوتقة واحدة . » [٢]

---

(١) الى هذا المعنى اتجهنا فى مقالنا السابق : « التربية بين التقليد والتجديد » (وهى المقالة العاشرة) .

(٢) A. N. Whitehead : « The Aims of Education.», New-York, A Mentor Book, 1961., P. 98.

ونحن — بدورنا — نقول لشبابنا العربى : « إنكم أهل حماسة ، وأصحاب خيال ؛ ولكن لا بد للحماسة من أن تقترن بالحكمة ، كما لا بد للخيال من أن يقترن بالخبرة » وليس أمعن فى الخطأ من أن يتصور بعض الشباب — عندنا — أن الإصلاح رهن بالقضاء على قيم الماضى ، أو أن التقدم متوقف على تحطيم تراثنا القديم ! صحيح أنه لا بد لنا من التخلى عن تلك الأنماط السلوكية البطيئة ، التواكلية ، الرجعية ، ولكن لا بد لنا — فى الوقت نفسه — من أن نتذكر أنه ليس كل « قديم » باطلا لمجرد أنه قديم ، كما أنه ليس كل « جديد » صحيحاً لمجرد أنه جديد ! والواقع أن هناك مغالطة منطقية سافرة يقع فيها بعض المتحمسين العرب (من دعاة الثورة عندنا) حينما يأخذون على شبابنا أنه لا يلتزم فى كل آرائه وأحكامه وقيمه وأنماط سلوكه موقفاً ثورياً جذرياً ، « بينما كان يفترض فى مثل هذا الشباب أن يكون على النقيض من ذلك ، باعتبار أن أفراده ثوريون تقدميون ؛ وإن لم يكونوا ثائرين على صورة الماضى القاتمة ، ومتقدمين على أسلافهم ، فهم ثائرون على ماذا ، أو متقدمون على من إذن ؟ » . وينسى هؤلاء المتحمسون — أو يتناسون — أن الموقف الثورى لا يقتضى بالضرورة رفض كل القيم ، والتمرد على الماضى بأسره ، بل هو يتطلب ضرباً من التمييز الواعى الحكيم الذى يمكن صاحبه من معرفة « ما يقبل » و « ما يرفض » ،

و « لماذا يقبل » ، و « لماذا يرفض » ! ولسنا نعرف — فى تاريخ البشرية الطويل — أمة واحدة وجدت فى كل ماضيها مجرد سلسلة متلاحقة من الصور القاتمة ، كما أننا لا نكاد نلتقى — فى كل تاريخ المجتمعات — بمجتمع واحد رفض كل تراثه لمجرد أنه يريد إحداث تغيير ثورى جذرى حاسم ! والحق أن الثورة ليست ثورة على الأسلاف ، بل هى ثورة على رواسب التخلف حيثما وجدت ، ولم يكن الأسلاف دعاة جمود أو أهل تخلف ، بل كانوا دعاة تغيير وأهل تقدم . وما ذنب الأسلاف ، إذا كنا نحن — أبناءهم — لم نعد نعرف كيف نواجه ظروفنا بما تتطلبه المواقف الجديدة من حكمة ، وتعقل ، ومرونة ؟ !

لا بد للشباب العربى — اولا — من عملية « اصلاح ذاتى »

ولكن ، لندع جانباً قضية « السلفية والتجديد » ، ولنسائل أنفسنا : « ما الدور الحقيقى الذى ينبغى للشباب أن يضطلع به فى معركة الإصلاح ؟ » . ولن يتسنى لنا أن نقدم الجواب الصحيح على هذا التساؤل ، اللهم إلا بعد أن نكون قد فهمنا المعنى الحقيقى للإصلاح . ولسنا بحاجة إلى الإفاضة فى شرح هذا المعنى : فإن من الواضح أن المقصود بالإصلاح هو التعجيل بتحقيق عملية الانتقال بالمجتمع العربى من حالة التخلف الحضارى التى يرزح تحتها ، إلى حالة جديدة من الترقى الحضارى ، يتم فيها القضاء على الرجعية ، والسطحية ، والاستحالة ، والتواكلية ، والانتهازية ... إلخ . ومعنى هذا أن

« الإصلاح » الذى ندعو إليه لا يتحقق على المستوى السياسى وحده ، بل هو لا بد من أن يمتد إلى سائر المجالات الحضارية الأخرى (بما فيها المجال الخلقى ، والمجال الفكرى ، والمجال الاجتماعى ... إلخ) . فالإصلاح المنشود هو عملية « تغيير حضارى » تتطلب تضافر شتى الجهود ، من أجل إعادة بناء المجتمع العربى على أسس علمية موضوعية ، ووفقا لتخطيط علمى مرسوم .

بيد أن الشباب العربى مطالب بالمساهمة فى هذه المهمة ، من خلال عملية « الإصلاح الذاتى » التى هى أشق مهام « الإصلاح » . وبعبارة أخرى ، يمكننا أن نقول إن الخطوة الأولى ـ على درب التغيير ـ هى العمل على مواجهة العدو الداخلى ، ألا وهو « الذات » ! وليس من السهل على الشاب العربى أن يبدأ بإصلاح ذاته : فإننا قد درجنا على اتهام الآخرين ، وإسقاط كل شىء على أكتاف الغير ، وكأن الظروف وحدها هى المسئولة عن فشلنا ، أو كأن الأوضاع الخارجية هى المسئولة عن كل ما يحيق بنا من نكبات ! وهذا هو السر فى أن الشاب الجامعى ـ عندنا ـ مستعد دائماً لتبرير ضعف مستواه العلمى بسوء أنظمة الجامعات ، وعدم توافر الأجهزة والأدوات العلمية ، وانعدام الكفاءة العلمية لدى الأساتذة ، وما إلى ذلك من مبررات ! ولكنه قلما يبدى استعداداً لاتهام نفسه ـ ولو جزئيا ـ بأنه هو أيضاً مسئول عن جانب من هذا الضعف الملحوظ فى مستواه العلمى . ومن هنا ، فقد

أصبحت جامعاتنا تخرّج لنا سنوياً الآلاف من « أنصاف الأطباء » ، و « أنصاف المهندسين » ، و « أنصاف المحامين » و « أنصاف المدرسين » ... إلخ ، دون أن يرتفع صوت واحد – من بين صفوف الشباب – معلناً أن الشباب العربى نفسه مسئول – إلى حد غير قليل – عن هذا المستوى الضعيف الذى نلمسه لدى خريجى الجامعات !

والواقع أننا لم نعد نلقى لدى طلابنا الجامعيين حرصاً على التثقيف الذاتى ، أو اهتماماً بالاطلاع الشخصى ، بل أصبحنا نلاحظ أن الغالبية العظمى منهم لا تكاد تفكر إلا فى الحصول على الشهادة الجامعية بأى ثمن ، والظفر بالوظيفة الحكومية (أو غير الحكومية) فى أقصر وقت ! وهكذا فقد الكثيرون روح الحماسة والرغبة الصادقة فى العمل ، وأصبح رائدهم – كما قلنا فيما سلف – هو مبدأ « الجهد الأقل » : بل إن البعض منهم ليبدو – بادىء ذى بدء – قوى العزيمة ، مستخفّا بالصعاب ، مستعدا لتحمل المخاطر ، حتى إذا ما خطا الخطوة الأولى على الطريق الذى اختاره لنفسه ، لم تلبث جذوة الحماسة أن انطفأت فى نفسه ، ولم تلبث همته السابقة أن فترت ، وكأنما هو لم يعد يجد فى نفسه الشجاعة لمواصلة العمل الذى طالما تحمس له ! وربما كان السبب فى ذلك أن شبابنا لم يألف حياة العمل والمثابرة ، فهو يريد تعجّل النتائج ، وهو لا يكاد يملك أية قدرة على الجلد والاستمرار فى حياة الجهد البطىء المتراكم ! إنه يدعو نفسه صاحب « ثورة

جذرية » . ولكنه قلما يفطن إلى أنه لا بد لأهل الثورة من أن يبدأوا بأنفسهم ، لكى يعلنوها حرباً شعواء على ما فى نفوسهم من ضعف ، وخور ، وتكاسل ، وتواكل ، وتساهل مع الذات ... إلخ .

ولا بد للشباب العربى – أيضاً – من المساهمة فى عملية «التوعية»

... على أن دور الشباب العربى – فى معركة الإصلاح – لا يقتصر على عملية « الإصلاح الذاتى » (مع كل ما تقترن به من تثقيف ذاتى ، وتقويم أخلاقى ، وما إلى ذلك) ، بل لا بد للشباب العربى أيضاً من الخروج من عزلته الفردية ، من أجل القيام بدور إيجابى طليعى فى عملية توعية الجماهير . والواقع أن الغالبية العظمى من جماهير الشعب العربى ما تزال أسيرة للخرافات ، والخزعبلات ، والأساطير ، وغير ذلك من مظاهر العقلية البدائية ، فلا بد للشباب العربى المثقف من أن يأخذ على عاتقه مهمة تحرير تلك الجماهير من أسر التفكير الغيبى التخلفى . ونحن نعلم أنه ليس من اليسير على أية طبقة مثقفة أن تقوم بمثل هذه التوعية الفكرية الشاقة ، ولكننا نثق فى قدرة الشباب العربى المتعلم على القيام بدور إيجابى فعّال فى عملية اقتلاع جذور ذلك التفكير الخرافى من أذهان جماهير شعبنا العربى . ولا شك أن المتعلمين الذين يعودون إلى قراهم أو مدنهم الصغيرة – خلال فترات العطلة الصيفية (مثلا) – يستطيعون المساهمة فى عملية توعية أهل الريف بما يملكون

من وسائل إقناع وطرق استمالة . وهم يملكون — إلى حد كبير — بث الروح العلمية العصرية فى نفوس مواطنيهم من الفلاحين والعمال ، حتى يفهم الجميع أنه لا بد للمجتمع العربى الجديد من أن يساير ركب التقدم الحضارى الحديث ، بالمشاركة فى النهضة الصناعية والعلمية والتكنولوجية ، وإلا لما أصبح فى وسعه الوقوف فى وجه العدو الصهيونى المزوّد بأحدث الأجهزة الإلكترونية فى مضمار الحرب والصناعة .

صحيح أن الكثير من ضروب التعصب الأعمى ما تزال تعوق عملية « التوعية الفكرية » ، خصوصاً وأن المؤسسات العلمية عندنا لم تقم بعد بدورها الحضارى الحقيقى فى مضمار إنشاء الدولة العلمية التكنية الحديثة ، ولكن من المؤكد أن دور الشباب العربى فى هذا المجال بالذات دور خطير عظيم الأهمية : لأنه هو الذى يستطيع أن يقوم بدفع العقلية العربية إلى الأمام على طريق التحرر الفكرى ، والانطلاق به نحو المزيد من التكيف مع ظروف العصر . ولنضرب لذلك مثلا فنقول : إن البعض ما يزال يُدخل فى عقول السذَّج من العمال والفلاحين أن عملية « تنظيم النسل » عملية لا — أخلاقية منافية للدين ، بحجة أن كل طفل يولد لا بد من أن يقدم إلى الوجود ومعه رزقه ! وعلى الرغم من كل ما فعلته الأجهزة الحكومية المسئولة (وما تزال تفعله) ، فإن مثل هذا المنطق الخرافى فى فهم مسألة الأرزاق ما يزال يسيطر على عقول الكثير من عامة الشعب ! وأحسب أن على شبابنا العربى المثقف العمل على مكافحة مثل

هذا المنطق الخرافى ، بكل ما أوتوا من قوة حجة ، ومن بلاغة إقناع ! والواقع أن من واجب شبابنا إفهام جماهير الفلاحين والعمال أن مشكلتنا ليست هى مجرد مشكلة العناية بالسكان الذين يتزايد عددهم يوماً بعد يوم ، والذين تتعقد مسألة تغذيتهم يوما بعد يوم ، بل هى — أولا وقبل كل شيء — مشكلة « حياة هذه الأمة أو موتها » ! ... إن عددنا نفسه قد أصبح اليوم — فى حد ذاته — جريمة ! وليس من شك فى أن المجتمع الذى يتفاقم فيه الصراع من أجل البقاء ، نتيجة لتزايد عدد سكانه ، إنما هو (على حد تعبير هربرت ماركيوز) مجتمع" مجرم ! ولا بد لجماهير شعبنا من أن تفهم أنها بسوء تصرفها ، تساهم فى تفاقم هذه الجريمة البشعة : جريمة دفع الوطن إلى المجاعة ! ولسنا نظن أن شبابنا عاجز عن إقناع جماهير شعبنا بهذه الحقيقة الأولية البسيطة ، ولكننا نعتقد أنه لم يضطلع بعد بهذه المهمة الإعلامية الخطيرة ، لأنه لم يفكر يوماً فى النزول إلى جماهير الفلاحين والعمال من أجل المساهمة فى توعيتهم .

دور الشباب الحضارى ، بوصفهم « مراكز الوعى السياسى » فى المجتمع ...

... إن البلاد العربية (وعلى رأسها مصر) ما تزال بلاداً نامية يغلب عليها التخلف الاقتصادى ، وتتفشى فيها الأمية ، ويسودها الكثير من مظاهر التأخر الاجتماعى . وليس من شك

فى أن للشباب عادة ـــ فى أمثال هذه المجتمعات النامية ـــ دوراً حضاريا طليعيا : لأنهم (والغالبية العظمى منهم طلاب) يمثلون مراكز الوعى السياسى فى تلك المجتمعات . وإذا كانت الأجهزة الحكومية الرجعية ـــ فى الماضى القــريب ـــ قد حظرت على الطلاب الاشتغال بالسياسة ، فإن المجتمعات الثورية الحديثة لم تعد تؤمن بضرورة فرض حظــر الاشتغال بالسياسة على المواطنين من طلابها . هــذا إلى أن الجامعات ـــ فى عصرنا الحاضر ـــ لم تعد مجرد مراكز أكاديمية للبحث العلمى الصرف ، بل هى قد أصبحت ـــ إلى جانب ذلك ـــ « منظمات ثقافية » للشباب ، يتم فى رحابها تفاعل حيوى هام بين شتى الاتجاهات الفكرية فى المجتمع الواحد . ولما كان الطلاب الجامعيون ـــ فى المجتمعات النامية ـــ يمثلون الطبقة المثقفة التى يفترض فيها أنها ستخرج للبلاد الصفوة الممتازة ، فإن السلطات المسئولة حريصة كل الحرص على إقامة ضرب من « الحوار الفكرى » بينها وبينهم ، حتى تهيأهم لتبوء مراكز القيــادة فى مجتمع المستقبل .

وإذن فإن أحداً لم يعد يستطيع ـــ اليوم ـــ أن ينكر على الشباب العربى حقه المشروع فى الاضطلاع بمثل هذا الدور الحضارى الهام فى معركة الإصلاح الشامل . ولكننا لا نريد لشبابنا العــربى أن يكون مجرد داعيــة من دعاة « الرفض الكبير » : Le Grand Refus (على حــد تعبــير هربرت ماركيوز) ، بل نريد له أن يكون قوة إيجابية كبرى تعمل

للبناء ، لا للهدم ! صحيح أن الشباب في العالم كله ــ أميل عادة إلى التطرف منه إلى الاعتــدال ، ولكن من المؤكد أن الأصوات الوطنية المخلصة ، والدعوات القومية الأمينة ، لايمكن أن تذهب أدراج الرياح ! ونحن أعرف الناس بما يتصف به شبابنا العربى من حماسة وطنية ، ورغبة صادقة فى التغيير ، ولكننا مع ذلك لا نريد لانتفاضاته أن تكون مجرد فورات عاطفية عرضية لا تنطوى على أى فهم ســياسى عاقل لحقائق الأمور . وربمــا كان أخطر ما فى أمثال هــذه الانتفاضات الشبابية أنها قد تكون أحياناً مجرد تعبــير عن السخط أو المعارضة ، دون أن تكون لها أدنى دلالة سياسية إيجابية . ونحن اليوم ــ فى مجتمعنا العربى المعاصر ــ أحوج ما نكون إلى أيدٍ عاملة بناءة تشترك فى عملية إعادة بناء صرح مجتمع الغد ، لا إلى مجرد حناجر قوية تتعالى صيحاتها فى عنــان السماء ! وليس أيسر على شبابنا من أن يهتف ، ويصرخ ، ويصيح ، وينادى بحياة هذا أو سقوط ذاك ، ولكنه ــ عندئذ ــ لن يكون قد قام بأى دور إيجابى فى معركة الإصلاح !

إن شباب العدو ــ ذكوراً وإناثاً ــ قد شمّروا عن ساعد الجد فى الداخل والخارج معاً ، فما بالنا نحن نأبى إلا أن نقدم للعالم صورة مشوّهة لنضالنا السياسىّ ، وكأن حضــارتنا العربية ما تزال « حضارة قولٍ » تصنع الحرب بالكلمات ، وتحقق النضال بالشعارات ، وتنجز الإصلاح بالهتافات ! ؟ إن شبابنا اليوم مطالب بمحو الأمية التى ما زالت متفشية بين

الغالبية العظمى من المواطنين ؛ مطالب بالتوعية الاجتماعية التى يمكن معها تنبيه الناس إلى ضرورة تنظيم النسل ؛ مطالب أيضاً بتطهير هـذا المجتمع من شوائب الانتهـازية ، والرجعية ، والتواكلية ... إلخ . ولن يكون مجتمع المستقبل أفضل من مجتمع اليوم إذا استحال طلابه إلى ساسة ، وقادة ، وزعماء ، بل إذا صاروا أقدر على مواجهة مشكلات مجتمعهم ، عن طريق مضاعفة الجهد فى مضمار التقدم العلمى ، واكتساب المزيد من المهارات فى شتى ميادين التكنية . وإذن فليعـلم شبابنا العربى أن معركة الإصلاح إنما هى معركة العلم ، والتكنية ، والتخطيط ، لا معركة القول ، والهتاف ، والتصفيق !

خاتمة

أما بعد ، فإذا كان ثمة عقدة تلتقى عندها كل خيوط هذا النقد الاجتماعى الذى وضعناه بين يديك — أيها الشباب العربى — فتلك هى عقدة « الفردية » . والحق أن عجز الإنسان العربى عن الاهتمام بأخيه الإنسان العربى ، وانشغاله بالتفكير فى مصالحه الخاصة ، واستهتاره بالقيم الاجتماعية أو الغايات العامة ، إنما هى أعراض متنوعة لداء أخلاقى واحد ، ألا وهو « داء الفردية » . ولا نرانا فى حاجة إلى سرد النماذج العملية التى تشهد بأنانية المواطن العربى ، وإنما حسبنا أن نقول إن كل — أو جل — معاملاتنا الاجتماعية فى الوطن العربى قائمة على مبدأ « الفردية المتطرفة » ، إن لم نقل « الأنانية الفاحشة »! وقد يكون تعقد الحياة المادية مسئولا — إلى حد غير قليل — عن تزايد روح الفردية لدى الكثيرين ، ولكن من المؤكد أن التربية الأخلاقية التى يتلقاها أبناؤها مسئولة أيضاً — وبدرجة أكبر — عن تفشى « روح الأنانية » فى نفوس أبناء الجيل الحاضر . وآية ذلك أننا لا نعلّم شبابنا روح التعاون ، كما

أننا لا ننمّى فى نفوسهم الرغبة فى القيام ببعض الأعمال الجماعية المشتركة ، فضلا عن أننا قلما نهتم بتعويدهم حياة الخدمة ، والعطاء ، والتضحية ... إلخ . ومن هنا ، فإن الشاب العربى ينشأ مزوّداً بروح الفردية العمياء ، والأنانية الطائشة ، دون أن يكون لديه أى استعداد للخروج من عزلتــه الشخصية الضيقة ، أو التحرر من أسر مصالحه الذاتية المغلقة ! وقد أثبتت لنا التجارب السيكولوچية أن الفرد الذى لا يبدى أى اهتمام بغيره من الأفراد ، كثيراً ما يصبح عاجزاً عن تحقيق أى نجاح فى الحياة ، لأنه يمثل عائقاً فى سبيل نمو الجماعة ، فضلا عن أنه لا يملك من المقــدرة ما يستطيع معه التعاون مع غيره من الأفراد فى إنجاز أى عمل جماعى مشترك . ومثل هؤلاء الأفراد كثيراً ما يكونون مجرد أطفال مدللين لم يتعودوا يوماً حياة التعاون والمشاركة ، أو هم قد يكونون مجرد أطفال مهمَلين لم يلقوا يوما أى عطف أو رعاية من قِبَل الآخرين ، فنشأوا على حب الذات والتخوف من الآخرين ! ولا شك أن نقص التنشئة الاجتماعية ــ إن لم نقل انعدامها ــ كثيراً ما يكون هو الأصل فى داء « الفردية » الذى يظل مصاحبا للكثيرين فى كل مراحل حياتهم النفسية . وليس أدل على ذلك من أن الكثيرين عندنا يخلعون على حياتهم « معنى » فرديًّا محضاً ، وكأن الحياة قد جُعِلَتْ لهم وحدهم دون سواهم ، أو كأنّ نظرتهم إلى الحياة مسألة خاصة لا يمكن لأحد غيرهم ــ فى العــالم كله ــ أن يقاسمهم إياها أو أن يشاركهم فيها ! ومثل هؤلاء

الأفراد يجدون أنفسهم بالضرورة عاجزين عن إقامة أى جسور بينهم وبين غيرهم من أبناء مجتمعهم : لأنهم لا يجدون بين أيديهم من « الموضوعات المشتركة » ما يسمح لهم بتحقيق أى تواصل مع الآخرين ! وحسبنا أن ننظر إلى الطفل الذى نشأ على هذا النمط الفردى من أنماط أساليب الحياة ، لكى نتحقق من أنه مخلوق ضائع شارد النظرات ، لَيْسَ فى عينيه سوى ذلك « الخواء » الذى نلمحه على وجوه المجرمين والمجانين !.. إن هؤلاء جميعـــا مخلوقات لا تعرف كيف تستخدم أعينها للاتصال بالآخرين ، أو هم على الأصـــح أناس" لا يملكون القدرة على النظر إلى غيرهم من بنى البشر ، فهم يُشيحون بأبصارهم عن أقرانهم من الناس ، أو هم يصوبون أنظارهم إلى « لا شىء » (أو إلى « لا أحـــد » !) وهذا ما فطن إليه الكثير من علمـــاء النفس حينما قالوا إن العديد من الأعراض العصابية هى مجرد تعبير عن هـــذا العجز النفسى عن الاتصال بالآخرين ، نتيجة لنقص التنشـــئة الاجتماعية فى فترة الطفولة المبكرة . وهكذا يكون الخجل ، والتلعثم ، والقلق النفسى ، والعجز الجنسى (وما إلى ذلك) مجرد نتائج مَرَضية لتلك التربية السيئة التى تلقاها الطفل فى بداية حياته ، فخلقت منه إنسانيا عُصابياً عديم الروح الاجتماعية .

على أن « المدرسة » ــ لا « البيت » ــ هى الدعامة الكبرى لنمو الحياة الأخلاقية لدى الفرد : نظراً لأنها هى التى تربّى فى نفسه الميـــل إلى الحياة الجمعية ، وهى التى تكوّن لديه

عادات التفــكير والســلوك الجماعيّـين . ومعنى هــذا أن « المدرســة » هي الجماعة الحقيقية التى تتكوّن فى أحضانها الروح الاجتماعية لدى الفرد : إذ يدرك التلميــذ فى كنفها أصول الكثير من الواجبات التى تستلزمها الحياة الاجتماعية ، ويُسْهم عن طريقها فى القيام بالعديد من الأنشطة التى تقوّى لديه روح التضامن . ولعلّ هذا ما عناه المفكر الاجتماعى إميل دوركايم حين كتب يقول : « إن المدرسة ــ فى الواقع ــ حقيقة ذات وجود فعلى ، يساهم فيها الطفــل بالطبيعة والضرورة ؛ وهى جماعة تختلف فى طبيعتها عن الأسرة : إذ أنها لا تقوم ــ قبل كل شىء ــ على تقارب القلوب وتجاوب العواطف ، كما هو الحال فى الأسرة ، بل هى جماعة تتمثل فيها ــ على صورة أولية بسيطة ــ كل ضروب النشاط العقلى . وعلى ذلك فإن فى وسعنا أن نهتدى فى المدرسة إلى الوسيلة التى ندمج بها الطفل فى حياة اجتماعية مختلفة عن حياته المنزلية ؛ وفى وسعنا أن نكسبه عادات تتأصل فى نفسه ، ويمتد تأثيرها إلى ما بعد الدراسة ، حيث تدفعــه دائما إلى أن يشبعها بالقــدر الذى تستحقه » ...

ولكنْ ، إذا كان هذا هو دور « المدرسة » فى تنمية «روح الجماعة » لدى الطفل ، فما بالنا نشهد لدى أبنائنا ــ حتى فى دور الدراسة ــ نمطا فرديًّا فى التفكير والسلوك ؟ إننا لا نريد ــ فى هذا الصدد ــ أن نصدر أحكاما عامة ليس بين أيدينا من القرائن ما يقطع بصحتها ، ولكننا نكتفى بعقد مقارنة عابرة بين

حياة طالب أوربى (وليكن ألمانيا مثلا) ، وحياة طالب عربى (وليكن مصريا مثلا) : ففى أوربا (وفى ألمانيا بصفة خاصة) يقوم الطلبة بكل شيء جماعات [1] : فهم يغنّون جماعة ، ويتنزهون جماعة ، ويلعبون جماعة ، ويمارسون أنشطتهم الثقافية جماعة ، وبذلك تتكون لديهم جماعات عديدة متنوعة تناظر جميع الأوجه الممكنة للنشاط البشرى ، بينما نلاحظ فى البلاد العربية (وفى مصر بصفة خاصة) أن الشاب لا يكاد يجد نفسه محوطاً بأىّ إطارٍ اجتماعى ، وأنه ـ بالتالى ـ قلما يتفرغ لحل مشاكله الجدية فى نطاق الحياة الاجتماعية ، وكأنه لا يكاد يشعر بوجود « المجتمع » ، اللهمّ إلا فى الجانب السطحى من حياته ! وربما كان السبب فى ذلك أن حياة الطفل العربى فى المدرسة (حتى داخل الفصل) ليست حياة جماعية بحق : إذ قلما يَعْنَى القائمون على شئون التربية عندنا بخلق روح التضامن فى نفوس التلاميذ ، أو استثارة مشاعر الحياة الجمعية فى عقول الطلاب وأفئدتهم .

صحيحٌ أننا قد اتجهنا أخيراً إلى الاستفادة من فترة الدراسة لتزويد الطفل بعادة الاشتراك مع الجماعة فى مختلف أوجه نشاطه ، ولكننا لم ننجح بعد فى اقتلاع « روح الفردية » من نفوس التلاميذ : لأننا ما زلنا ننمّى فى أنفسهم روح التنافس الفردىّ ، بدلا من تعويدهم أسلوبَ التنافس

(١) وهو ما اصطلح الاجتماعيون على تسميته باسم « روح الفريق » . . .

الجماعى . والحق أن من شأن التنافس الجماعى أن يزيد من حيوية كل طفل : إذ تزداد ثقته بنفسه حين يشعر بأنه لم يعد وحيدا ، ويتضاعف اعتداده بقوته ، حين يدرك أنه لا يعمل بمفرده . ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن فى كل حياة مشتركة عنصرا من الحماسة يلهب القلوب ويشحذ الهمم : فإنه لمن الواضح أن هناك متعة كبرى يستشعرها الفرد حين يقول « نحن » ، بدلا من أن يقول « أنا » . ولا ريب ، فإن من يقول « نحن » إنما يحس بأن من ورائه شيئا ما ، وأن ثمة دعامة يستند إليها هى قوة الجماعة التى تفوق بكثير قوى الأفراد متفرقين ! وحينما يعرف الطفل (أو الشاب) كيف ينطق بكلمة « نحن » باطمئنان أكثر وثقة أكبر ، فهنالك يكون قد أخذ يستشعر لذة الحياة الجماعية ، وهنالك أيضا ينمو فى نفسه الإحساس بأنه سعيد بحياته الجديدة : إذ لم يعد يعتمد فى حياته على نشاطه الخاص وحده ، بل أصبح يستمد قوته من الحياة الجماعية التى يشارك فيها ...

ونحن اليوم — فى مجتمعنا العربى المعاصر — أحوج ما نكون إلى تنمية « الروح الجماعية » فى نفوس أبنائنا ، خصوصا وأن من أوضح السمات المميزة لروحنا القومية ضعف روح التضامن لدى المواطنين ، وشدة نزوع الأفراد نحو الاتجاهات الفردية الضيقة . ولا سبيل — فى رأينا — إلى استئصال جذور هذه « الفردية » المتطرفة ، اللهم إلا بتنمية روح الميل إلى الجماعة عن طريق الممارسة العملية المتصلة للعديد

من ضروب النشاط الجماعى المشترك . والحق أن التفكير الجمعى ، والسلوك الجمعى ، عادتان نفسيتان ، إن لم نقل إنهما « مزاج خلقى » يتكون تحت تأثير التدريب المستمر . ولا شك أنه إذا لم تكن هناك « حياة جمعية » يساهم فيها الفرد ، وإذا بقى سلوك المواطن — فى شتى المجالات المهنية ، والمدنية ، والفنية ، والعملية (وما إلى ذلك) — مجرد سلوك فردى محض ، فإنه هيهات للمزاج الاجتماعى أن يجد لديه الفرصة للنمو والترقى ، وبالتالى فإن الواجبات التى تفرضها عليه الحياة الاجتماعية لا بد من أن تبقى فى نظره أعباء ثقيلة يضيق بها . وأما إذا عرف الفرد معنى الحياة المشتركة ، وإذا أدرك أن الحياة الاجتماعية الصحيحة لا تطلب منه التضحية بشخصيته ، بل هى تعطيه أكثر مما تأخذ منه ، فهنالك قد يجد فى النشاط الجمعى وسيلة ناجعة للخروج من عزلته الفردية الضيقة ، وبالتالى فإنه قد يشعر عندئذ بأن قيمته الحقيقية رهن بقيمة المجتمع الذى ينتسب إليه . وربما كان من بعض واجبات أهل التربية أن يشعروا الطفل (والشاب) بأن لأفعاله من الأسباب والنتائج ما يتعدى نطاق شخصيته الفردية ، وأنه (أى الطفل) — بالتالى — ليس كلا مكتفيا بذاته ، بل هو جزء من كل ، أو هو — على الأصح — عضو فى « جماعة » تتغلغل فى أصغر جزء من كيانه ، ويعتمد عليها هو فى أبسط تصرف من تصرفاته .

وإذا كان ثمة درس فلسفى نحن فى أمس ّ الحاجة إلى استيعابه ، فذلك هو الدرس الذى تقدمه لنا التجربة الاجتماعية الحقة حين تذكر كل فرد منا بأن ما يسميه باسم « الأنا » إنما هو كيان يتألف من عناصر قد استمدها من الخارج ! والواقع أن ذهننا عاجز — بطبيعته — عن الاكتفاء بالغذاء الباطنى الذى يَرِد ُ إليه من داخله هو نفسه ، فهو لا يملك أن يفكر فى فراغ ، وإنما لا بد له من مادة تأتيه من العالم الخارجى ! وإذن فلا بد لكل من يقول « أنا » ، من أن يتذكر أن لديه شيئا آخر غيره ، وأن هناك من ثم « نحن » تكمن من وراء تلك «الأنا» ! وهذه الـ «نحن» — على وجه التحديد — هى ما لا بد للأسرة ، والمدرسة ، وشتى أجهزة التربية والتعليم والإعلام ، من العمل على إيقاظ الشعور به فى نفوس المواطنين . ولا شك أننا حين نشجع « العمل الجماعى » (فى المدارس ، والمصانع ، والمؤسسات ، والإدارات الحكومية ، وشتى ضروب الإنتاج) فإننا عندئذ نخلق فى المجتمع الجو الروحى الملائم للشعور بالمسئولية الجماعية .

إننا لا ننكر — بطبيعة الحال — أن ثمة مسئولية فردية يتحملها الفرد الواحد حين يكون هو وحده القائم بالفعل ، ولكننا نميل إلى الظن بأنه قلما يكون ثمة فعل لا يقع فيه جانب من المسئولية على الجماعة التى ينتمى إليها الفرد صاحب هذا الفعل . وحينما تشعر الجماعة بواجبها الحقيقى فى عملية التكوين الأخلاقى لأفرادها ، فإن فكرة « المسئولية الجمعية » قد تسترد ّ

بعضا من قيمتها فى أذهان الناس جماعات وأفراداً . وليس من سبيل إلى القضاء على الروح الفردية المتطرفة فى نفوس « المواطنين » ، اللهم إلا بخلق الجو الأخلاقى الملائم لنمو روح المسئولية الجماعية ، وإشعار الأفراد بأن قيمة كل واحد منهم مرتبطة ببقية الجميع . ولا شك أن مفهوم « المواطن » نفسه إنما هو « مفهوم » اجتماعى يفترض قدرا غير قليل من « الوعى الأخلاقى » و « التنشئة الاجتماعية » [1] .

وقد يكون من الحديث المعاد أن نقول إن فكرة الطفل عن وطنه لا ينبغى أن تبقى مجرد تصور ذهنى محض ، بل هى لا بد من أن تقترن لديه بعنصر عاطفى يكون من شأنه أن يلهب حماسته ويشحذ همته . وقد دلتنا التجربة على أن الطفل الذى نمت لديه عادة الاشتراك مع الجماعة فى مختلف أنواع نشاطه ، لا يلبث أن يصبح « مواطنا » مخلصا لوطنه ، لأنه قد أَلِفَ أن يقول «نحن» ، بدلا من أن يقول : «أنا» . وكثيرا ما يكون خروج الطالب من موطنه الأصلى ، واتصاله بالعالم الخارجى ، سببا قويا فى زيادة تمسكه بقوميته ، وتضاعف إحساسه بوطنيته . ولعل هذا ما قصد إليه الشاعر الانجليزى كپلنج حين قال : « ماذا يعرف عن انجلترا أولئك الذين لا يعرفون إلا انجلترا ؟ » . ولم يجانب كپلنج الصواب فيما قال : فإن الرجل

(١) ارجع الى كتاب « التربية الأخلاقية » لاميل دوركايم ، ترجمة د. السيد محمد بدوى ، مكتبة مصر ــ الدرس الخامس عشر .

الذى لم يغادر بلاده يوما ، لا يمكن أن يصدر حكما صحيحا على بلاده ، لأنه لا يعرف بلادا أخرى يستطيع أن يقارنها بها . وربما كان من بعض أفضال الرحلات والأسفار على أبناء القرن العشرين أنها تتيح لهم الفرصة لزيارة مجتمعات أخرى ، والوقوف على أحوال غيرهم من أهل البلدان المترقية ، فتسمح لهم بفهم مجتمعاتهم على نحو أفضل ، وتزيد من حماستهم فى العمل على تغيير الأوضاع الاجتماعية الراهنة فى بلادهم .

ونحن — فى العالم العربى — محتاجون بين الحين والآخر إلى « رؤية أوضح » تكفلها لنا أمثال هذه الاحتكاكات العديدة بالعالم الخارجى ، حتى نقيّم أحوال بلادنا بمعايير أصدق وأصوب . وقد كان أجدادنا العرب (ونحن اليوم نفخر بما خلفوه لنا من تراث مجيد) على اتصال دائب بغيرهم من أهل الحضارات الأخرى ، فلم يكونوا يجدون أدنى غضاضة فى الأخذ عن اليونان أو الفرس أو الهنود أو غيرهم . ونحن لا ننكر أن فى تراثنا العربى الخالد الكثير من القيم الروحية الدفينة ، ولكننا لا نرى مانعا من الانفتاح على العالم الخارجى ، حتى يكون فى هذا التواصل (ولا نقول التفاعل) ما يحفزنا إلى فهم أنفسنا ، ونقد ذواتنا .

والحق أن هناك « عمىً أخلاقيا » تصاب به الشعوب حين تغلق على أنفسها الأبواب ، فتصبح نظرتها الأخلاقية ضيقة ، ويصير جوها الروحى خانقا . وإذن فلا بد لنا من العمل على تهوية أجوائنا الروحية ، إذا أردنا لأنفسنا ألا نُصابَ بمثل

هذا الاختناق الأخلاقى ! صحيحٌ أننا لا نستطيع أن نستورد قيمنا الروحية من الخارج (فإن الأخلاق لا تستورد ، كما أن المُثُلَ العليا ليست سلعا تُسْتجْلَب من أىّ سوق خارجى) ، ولكنَّ من المؤكد أن من شأن « التهوية » الروحية أن تعيننا على التعجيل بإصلاح مجتمعاتنا . وليس من سبيل أمامنا إلى تحقيق مثل هذه « التهوية » ، اللهمّ إلا بفتح المجال أمام شبابنا للاتصال بالثقافات الأخرى ، والاحتكاك بشتى حضارات العالم الخارجى . وهذا ما تفعله — مثلا — بعض الجامعات الأوربية حينما تتبادل الزيارات مع غيرها من جامعات العالم فى فترات العطلة الصيفية ، فتتيح بذلك الفرصة أمام طلابها لتوسيع آفاقهم الاجتماعية ، وتقريب شقة الخلاف بينهم وبين غيرهم من أبناء المجتمعات الأخرى .

أمَّا إذا قيل إنّ هذا « التبادل الثقافى » يتم كل يوم ، داخل حدود البلد الواحد ، عن طريق الأفلام والكتب والصحف وشتى وسائل الإعلام ، كان الجوابُ أنّ الاحتكاك المباشر بالعالم الخارجى لا يتم إلا عن طريق الرحلات والأسفار . ولهذا فإننى أدعو شبابنا إلى الخروج من فرديته ، والانفتاح على العالم الخارجى ، عن طريق الانتقال إلى بلدان الغرب فى أشهر الصيف ، من أجل الاتصال بمنظمات الشباب فى العالم كله ، والوقوف على أنماط السلوك لدى أهل الغرب قاطبةً . وإذا كانت صيحات البعض قد ارتفعت مُعْلنة أنه لا لزوم لأمثال

هذه الأسفار ؛ فإننى أدعو ــ على العكس ــ إلى تنظيم هذه الرحلات ، حتى تتيح الفرصة أمام شبابنا للمزيد من « النقد الذاتى » ... وليتذكَّر المسئولون عندنا أن « مَنْ لا يعرف سوى مصر ، فهو أبعد الناس عن معرفة مصر » ! وأما شبابنا فليعلموا أنهم لا يخرجون من مصر ، إلا لكى يعودوا إلى مصر ، أشد تمسكا بمصريتهم ، وأكثرة غيرةً على عروبتهم !.


تذییل

نداء إلى الفتاة العربية

منذ حوالى نصف قرن من الزمان ، ارتفع صوت عربى مخلص ، معلناً ضرورة تعبئة كل طاقاتنا البشرية (بما فيها الطاقة النسوية) لمواجهة أعباء معركة الإصلاح ، ومكافحة أدواء مجتمع التخلف . ولم يكن بيننا — فى ذلك الوقت — من يجرؤ على المناداة بضرورة نزول المرأة إلى ساحة « الجهاد الأكبر » ، ولكن الكاتب المصرى التقدمى « سلامة موسى » استطاع أن يكتب آنذاك — بكل صراحة — قائلا : « فى الهيئة الاجتماعية الجديدة التى ننشدها فى مصر ، قائمة على الحرية والتمدن والرخاء والكرامة ، يجب أن تكون لكل امرأة صناعة تعيش منها ، أو يمكنها أن تعيش منها عند الحاجة . ونحن الآن نحتقر الرجل الذى يعيش بكد غيره ، ويعجز عن أداء عمل مفيد للأمة ؛ ولكننا لا نحتقر المرأة التى تكون كذلك لا تؤدى عملا من الأعمال النافعة . ولكن ، فى الأخلاق الجديدة التى نرجو تعميمها ، يجب أن نعلق كرامة المرأة بعمل تعمله ، تنفع به نفسها

كما تنفع به أمتها . وكما أن البطالة تهين الرجل المتعطل ، كذلك يجب أن تهين المرأة المتعطلة »[١] .

وقد دافع سلامة موسى دفاعا حارًّا عن مبدأ « حق المرأة فى العمل الحر » ، فدعا إلى إفساح المجال أمام الفتيات لممارسة شتى المهن ، دون الاقتصار على مهنة التدريس ، ومهنة القبالة ، ومهنة التمريض ... إلخ . ولم تكن حجته فى ذلك قاصرة على أهمية تحسين المركز الاقتصادى للمرأة المصرية ، بل لقد ذهب كاتبنا العظيم إلى ضرورة شغل أوقات الفراغ لدى ربة البيت نفسها ، حتى يجد ذهنها ما يشغله من عمل مفيد . ثم اختتم سلامة موسى حديثه بقوله : « إننا ندعو شبابنا الأذكياء ، أن يهيّئوا الطريق لسفور المرأة المصرية ، بإعدادها لحرفةٍ ما ، تستطيع أن تعيش منها إذا أعوزها العيش ، كما تستطيع أن تملأ بها فراغها إذا كانت غنية ، حتى لا تتشتت خواطرها ، وتتجه نحو الفساد . فواجب كل والد أو والدة مصرية أن تهيّئ ابنتها لعملٍ تستطيع أن تحْسنه وتعيش منه ، كما تهيئ ابنها لمثل هذا العمل . وكرامة المرأة ، واستقلالها الاقتصادى ، وسلامة ذهنها وغرائزها ، بل سلامة أخلاقها : كلها تدعو إلى تعليمها حرفة تحترفها عند الحاجة »[٢] .

---

(١) ، (٢) سلامة موسى : مقال بعنوان : « لكل امراة صناعة » منشور ب « المجلة الجديدة » ، يوليه سنة ١٩٣٠ ، العدد ٩ ، ص ١١٠٧ ــ ١١٠٩ (المجلد الأول ــ العدد التاسع) .

ونحن اليوم إذْ نتوجه بندائنا هذا إلى الفتاة العربية ــ بعد حوالى ثلاثة وأربعين عاما أو ما يزيد ــ نشــعر بأن ضرورة تأكيد أهمية « العمل » ــ باعتباره المعيار الأوحد لقيمة الإنسان (ذكراً كان أم أنثى) ــ ما تزال دعوة معاصرة تحتاج إلى المزيد من الإلحاح . صحيحٌ أن الفتاة العربية قد غزت شتى كليات الجامعــات ، وصحيحٌ أيضا أنه قد أصبح لدينا الآن ــ فى مصر ــ نائبات ، ودبلوماسيَّات ، ومحاميات ، ووزيرات .. إلخ، ولكن من المؤكد أن الفتاة المصرية ما تزال تفكر بعقلية جدتها التى كانت ترتى أن « البيت » هو المكان الطبيعى للمرأة ؛ وأن « الأمومة » هى المصير الأوحد لكل أنثى ! وحينما قلنا ــ فى موضع آخر ــ إن مجتمعنا العربى ما يزال مجتمع رجالٍ فقط (لا رجالٍ ونساءٍ معا) ، فإننا كنا نعنى أن نصــف الشعب العربى ما يزال طاقة عاطلة لم تُستَخدَم ، فى حين أننا أحوج ما نكون اليوم إلى الإفادة من هذه الطاقة النسوية الهائلة . وآية ذلك أن الأنظمة الاشتراكية نفسها لم تنجح حتى الآن فى اجتذاب « المرأة العربية » إلى المصنع ، والإفادة من « الأيدى النسوية العاملة » (فى مجتمعنا العربى) من أجل تنشيط حركة التنمية والتقدم ، ومواجهة شتى التحديات الحضارية القائمة .

دعوة المرأة الى « العمل » هى نداء بالقضاء على قيم « مجتمع الحريم » !

وإذا كان الكاتب المصرى سـلامة موسى ـ منذ حوالى نصف قرن من الزمان ـ قد استطاع أن يحدثنـا عن نساء عاملات ، ونساء عالمات ، ونساء مغامرات ، ونساء طيارات .. إلخ . أفليس من العار علينا ـ اليوم ـ أن نجد أنفسنا من جديد مضطرين إلى إثارة قضية « عمل المرأة » ، وكأننا ما زلنا بحاجة إلى ترديد دعوات جرت على أقلام كُتّابنا العرب فى الثلاثينات من هذا القرن ؟ إن المطّلع على « المجلة الجديدة » التى كان يصدرها سلامة موسى حوالى سنة ١٩٣٠ ، ليعجب كيف كان هذا الكاتب التقـدمى وزملاؤه (من أسرة تحرير تلك المجلة) يحاربون القيم القَبليّة ، ويدعون إلى تحرير المرأة ، وينادون بأن يكون لكل فتاة حرفة أو صناعة ، ويُشيدون فى الوقت نفسه بـ « المرأة المقتحمة » .. إلخ . ولعلّ من هذا القبيل ـ مثلا ـ ما كتبه أحد المحرّرين بالمجلة المذكورة حين راح يقول : « إن المرأة فى العـالم كلّه ـ وليس فى الشرق وحده ـ كانت إلى عهد قريب ، لا تعيش ، أو لا يؤذن لها بأن تعيش ، سـوى المعيشة الغريزية ، ومعنى هـذا أن نشاطها الإنسانى كان يقتصر على الحمل والولادة ، كما كان الزواج هو الحرفة الوحيدة التى تحترفها وتعيش منها . ولكنها الآن عند الأمم المتمدينة تحيا تلك الحياة الإنسانية ، وتجد الميدان

فسيحا لنشاطها : فهى تشتغل بالتجارة ، والصحافة ، والطيران ، وتحترف الطب ، والمحاماة ، والأدب ... وهى تتزوج مع قيامها بهذه الأعمال ، شأنها فى ذلك شأن الرجل الذى لا يعد الزواج حرفة يحترفها ، ويقصر نشاطه عليها ... » [1] .

ونحن حين نقرأ — اليوم — هذا النداء الذى كان يتوجه به كتّابنا إلى المرأة العربية فى الثلاثينات من هذا القرن ، لا يسعنا سوى أن نتحسّر على الركود العجيب الذى أصاب المرأة العربية خلال نصف قرن من الزمان . وآية ذلك أن مجتمعنا المصرى (مثلا) ما يزال يدين بالقيم القبَلية التى تدور حول الشرف ، والعرْض ، والعفاف ، والحياء ، وغير ذلك من القيم التقليديّة . وعلى الرغم من أن الفتاة المصرية المتعلمة قد نزلت إلى ميدان العمل ، إلا أن دورها ما يزال ثانوياً فى مضمار « التغير الاجتماعى » . وآية ذلك أنك لا تكاد تلحظ أى تعديل جذرى طرأ على كيان مجتمعنا المصرى ، بعد تعلّم الفتاة المصرية ، واقتحامها لميدان العمل ، واختلاطها بالرجل فى مجال الحياة الاجتماعية ... إلخ .

والحق أن الكثير من الفتيات — عندنا — ما زلن يحلمن بفردوس « البيت السعيد » ، ويجعلن من أنفسهن مجرد « سلع » يضعنها تحت أنظار الرجال ، ويقضين معظم أوقاتهن

---

(١) ارجع الى « المجلة الجديدة » ، اكتوبر سنة ١٩٣٠ ، العدد ١٢ — المجلد الاول — مقال بعنوان : « المراة المقتحمة » ، من ص ١٤٧٨ الى ص ١٤٨١

فى البحث عن « وســائل التجميل » التى تضمن لهن الظفر بالزوج المنشــود ... إلخ . ونحن لا ننكر على المــرأة حقها المشروع فى أن تكون « أنثى » جميلة يرتاح لمرآها الرجل ، ولكننا نأبى للفتاة المصرية المثقّفة أن تظل تحيا على الأفكار الرومانســية القديمة ، وكأنْ ليس فى حيــاة المرأة ســوى « الأصباغ » ، و « الأزياء » ، و « الحلىّ » ، و « الشــعور الصناعية » ! ولو أتيحت للفتاة المصرية فرصة الالتقاء بأخواتٍ لهــا من غير العربيات ، لَراعَهَا ما تمتــاز به بعض هؤلاء الأجنبيات من بساطةٍ ، وطبيعيةٍ ، وعدم تكلّف ! وليس من شك فى أن « المرأة العاملة » لا يمكن أن تظل أسيرة لسحر « رنين الحلىّ » ، لأنها أعرف الناس بتفــاهة حياة المظاهر ، والبذخ ، والفخفخة !! ومن هنا فإنالدعوة إلى العمل هى فى الوقت نفســه نداء يهيب بالمرأة التخلّى عن الكثير من قيم « مجتمع الحريم » .

... ولا بد للمرأة العربية من مشاركة الرجل العربى فى معركة الجهاد الأكبر

لقد قرأت أخيرا ــ فى أحد الكتب الروسية ــ أن عــدد النساء العاملات فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٧٠ قد بلغ أكثر من خمسين مليونا : ١٥ مليونا منهن يشتغلن بالصناعة ، والبناء ، والنقل ، فى حين يشتغل ٧ ملايين منهن بالعلم ، و ٢٠ مليونا منهن بالزراعة ، والباقيــات يعملن فى قطاعات أخرى . ولكن

الظاهرة التى تسترعى الانتباه حقا هى أن ثلاثة أرباع الأطباء والمعلمين فى الاتحاد السوفيتى هم من النساء . هذا وقد حصل عدد غير قليل من النساء الروسيّات العاملات على أرفع أوسمة الدولة ، بما فيها وسام « بطولة الاتحاد السوفييتى » ، ووسام «بطل العمل الاشتراكى» ، وغير ذلك من الميداليات الذهبية(١). والواقع أن الاشتراكية العلمية قد منحت النساء كل حقوقهن ، فضلا عن أنها قد سوّت بين المرأة والرجل فى كافة المجالات ، بما فى ذلك مجال « العمل الحر » . وقد عملت هذه المساواة على تثبيت دعائم المجتمع الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى ، كما أدت فى الوقت نفسه إلى تقوية الركيزة الأخلاقية للأسرة فى هذا المجتمع (٢) .

ونحن ــ اليوم ــ حين نهيب بالفتاة العربية أن تحذو حذو غيرها من الفتيات العاملات ــ فى العالم الاشتراكى التقدمى ــ فإننا لا ندعوها إلى استرداد كرامتها الإنسانية فحسب ، بل نحن ندعوها أيضا إلى المساهمة بقسط إيجابى فعال فى عملية بناء المجتمع العربى الجديد . وإذا كان نشاط المرأة العربية قد اقتصر ــ حتى الآن ــ على أعمال الجمعيات النسانية ، وبعض الجهود النسوية الفردية ، فقد أصبح لزاما على المرأة العربية ــ اليوم ــ أن تستعيد قيمتها الإنسانية الحقيقية بوصفها « قوة

(١) ، (٢) « Man, Science and Society » , Moscow, Progress Publishers, pp. 259 — 260

عاملة » تستطيع أن تتحمل مسئوليتها الكبرى فى مضمار حركة التحرير والتعمير . ومهما يكن من أمر تلك الدعوات التخلفية التى ما يزال أصحابها يهيبون بالمرأة البقاء فى البيت ، باسم بعض القيم العتيقة البالية ، فإن من واجب الفتاة العربية المثقفة أن تأخذ على عاتقها مهمة توعية النساء العربيات ، والعمل على دعوتهن إلى المشاركة فى عملية تحقيق الاستقلال الحقيقى للوطن العربى ، اقتصاديا ، وسياسيا ، واجتماعيا ، وثقافيا ... إلخ . ولن يتهيأ للمجتمع العربى النهوض من كبوته ، ما لم تقف المرأة العربية جنبا إلى جنب مع الرجل العربى فى معركة « الجهاد الأكبر » ضد التخلف ، والجهل ، والرجعية ... إلخ . ولا شك أن ضرورات التنمية ، والتقدم ، والتحول الاشتراكى ، قد أصبحت تفرض على المجتمع العربى تعبئة كل ما لديه من طاقات بشرية (بما فى ذلك الطاقة النسوية) من أجل بناء المجتمع التقدمى الجديد . وما دام « العمل » هو المعيار الأوحد « للقيمة الإنسانية » فلن تكون للمرأة العربية أية قيمة إنسانية ما لم تقم بواجبها الوطنى فى مواجهة التحديات الحضارية القائمة ، ومقاسمة الرجل أعباء النضال الاجتماعى والسياسى .

والحق أننا لو أنعمنا النظر إلى المجتمع العربى المعاصر ، لوجدنا أن المرأة العربية لم تقم — حتى الآن — بأى دور إيجابى فعال فى عملية التحرير الكبرى . وقد يكون الرجل العربى نفسه هو المسئول عن جانب من هذا التقاعس النسوى ، ولكن من المؤكد أنه قد أصبح على الفتاة العربية المثقفة

ـ اليوم ــ أن تقوم بمهمــة استنهاض الهمم النسائية ــ فى الوطن العربى الكبير ــ من أجل المساهمة فى حركة التحرير العربية ، والمشاركة فى عملية بنــاء المجتمع العربى التقدمى . ولا شك أن الفتاة العربية التى قرأت عن نشاط العدوّ فى ساحة القتال ، وعلى الجبهة الداخلية ، لا يمكن أن ترتضى لنفسها أن تكون دون الفتاة الاسرائيلية قدرة وكفاءة ، بل هى لا بد من أن تفيق يوما من غفلتها ، لكى تأخذ مكانها إلى جانب الرجل العربى فى معركة المصير . وعنــدئذ قد يكون فى وسعنا أن نقول : إن المائة مليون عربىّ ــ رجالا ونساء ــ قد قاموا عن بكرة أبيهم يذودون عن حياض أرضهم ، ويسعون لاسترداد كرامتهم ...

أخيرا ، لا بد للمرأة العربية من أن تساهم فى « تنظيم النسل » ...

بقيت كلمة أخيرة لا بد منها ، وهى كلمة توجهنا بها ــ فيما سلف ــ إلى الشباب بصفة عامة ، ولكن لا بد لنا ــ الآن ــ من أن نتوجه بها إلى الفتيات بصفة خاصة . وليست هــذه الكلمة سوى الدعوة إلى التشديد على أهمية «تنظيم النسل» ، خصوصا فى المرحلة الحالية من مراحل نموّنا الاقتصادى . وما يزال كاتب هــذه السطور يذكر كيف أنه ساءل يوما إحدى السائحات الأجنبيات (وكانت فى طريقها إلى مغادرة مصر) عن أعجب ما شاهدته فى بلادنا ، فما كان منها ســوى أن أجابته

بقولها : « شيئان أثارا دهشتى : أحدهما أعجبت به ، والآخر عَجِبْتُ له : فأما الذى أثار إعجابى ، فهو منظر الأهرامات بروعتها وجلالها ؛ وأما الذى أثار عجبى ، فهو منظر تلك الأعداد الغفيرة من الأطفال الذين يملأون الشوارع » ! ولم تجانب هذه السائحة الصواب : فإن فى بلادنا من الأرانب البشرية ما تتقذّى له الأعين !

ونحن لا نريد لك ــ أيتها الفتاة العربية ــ وما نظن أنك تريدين لنفسك ، أن تصبحى مجرد « معمل تفريخ » ! فلا ترتضى لنفسك ــ مهما كانت الظروف ــ أن تستحيلى إلى « أُلْهية » فى يد رجلٍ أحمق لا يفكر فى مستقبلك ومستقبل أولادك ، أو أن تصبحى مجرد « ألعوبة » فى يد مخلوق طائش لا يفكر إلا فى لذته البهيمية الوضيعة على حساب صحتك ! ولا شك أنك إذا أخذت على عاتقك أن « تعملى » ، فإنك ستجدين متعة كبرى فى عملك ، بحيث قد يصرفك الاهتمام بإنتاجك الاجتماعى ، عن التفكير فى الانصراف إلى مضاعفة نسلك ! وليس أدعى إلى السخرية ــ اليوم ــ من منظر « الأمّ الشابة » التى تحمل فى بطنها جنينا ، وتجرّ وراءها خمسة أو ستة من الأبناء !

... إن عليك ــ يا فتاتى ــ أن تصبحى طاقة إنتاجية خلاّقة ، لا مجرد رقيقة مستعبدة لخدمة الجنس . ومهما يكن من أمر تلك التقاليد البالية التى تريد لك أن تظلى « خادمة مطيعة » تدين بالولاء لسيّدها ، فلتضعى نصب عينيك دائما

أنك مواطنة تملك حق الحياة ، وحق العمـــل ؛ وأنك بالتالى مطالبة بالمساهمة فى تحرير نفسك من أوضـــاع التخلّف ، وتحرير وطنك من آثار الرجعية . ويقينى أنك يوم تعرفين كيف تقومين بدورك الحقيقى الفعّال فى معركة « الجهاد الأكبر » ، فإنك لن تضعى نفسك تحت تصرّف أية قوة استبدادية تتخذ منك مجرد أداة لإشباع نزواتها أو إرضاء شهواتها !

صحيح" أن « مشكلة تزايد السكان » يمكن أن تتحوّل (على حد تعبير أحد الباحثين) « من معضلة تقليدية وآفة راسخة متوارثة ... إلى مورد طبيعى رئيسى من موارد الطاقة الإنسانية الجسمية والعقلية والفنية فى جميع ميادين الإنجاز والبناء » ، ولكن هذا لا يعنى التوقف عن « تنظيم النسل » ، أو التمادى فى إنجاب الأطفال بغير حساب ! وقد دلتنا التجربة ـــ فى سائر أنحاء الوطن العربى الكبير ـــ على أن تضاعف سير الإنتاج قلما يلاحق زيادة عدد السكان ، فلا موجب للوقوف فى وجه الدعوة إلى « تنظيم النسل » ، باسم أية قيم دينية ، أو أخلاقية ، أو حتى اشتراكية ! ولتتذكر الفتاة العربية ـــ أخيرا وليس آخرا ـــ أن « العمـــل » هو « المعيار الأوحد للقيمـــة البشرية » ، وأنه ليس أجمل فى الحياة من أن يتضافر كل من الرجل والمرأة على التحكم فى قوى الأرض ، من أجل جعل رقعة الأرض التى يعيشان عليهـــا جديرة بسكنى أبنائهم من بعدهم ! أجل ، يا فتـــاتى ، تلك هى مهمّتك ـــ فى مجتمعنا المعاصر ـــ ، وهى ـــ لو تعلمين ـــ مهمة إنسانية كبرى !

محتويات الكتاب

صفحة

مؤلفات الدكتور زكريا إبراهيم

اولا ـ رسائل جامعية :

١ ـ « فلسفة الفعل عند موريس بلوندل » ؛ رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٤٩
٢ ـ « ميتافيزيقا هوكنج » ؛ رسالة أصلية لدكتوراه الدولة ، جامعة السوربون ، باريس ، ١٩٥٤ باللغة الفرنسية .
٣ ـ « المشكلة الدينية عند وايتهد » ؛ رسالة فرعية لدكتوراه الدولة ، جامعة السوربون ، باريس ، ١٩٥٤ ـ باللغة الفرنسية .

ثانيا ـ مجموعة ((مشكلات فلسفية)) :

١ ـ « مشكلة الحرية » ، القاهرة ، مكتبة مصر ، طبعة ثالثة ، ١٩٧٢
٢ ـ « مشكلة الانسان » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٦٧
٣ ـ « مشكلة الفن » مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٦٧
٤ ـ « مشكلة الفلسفة » ، مكتبة مصر ، طبعة ثالثة ، ١٩٧١
٥ ـ « مشكلة الحب » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٧٠
٦ ـ « المشكلة الخلقية » ، مكتبة مصر ، طبعة أولى ، ١٩٦٩
٧ ـ « مشكلة الحياة » ، مكتبة مصر ، طبعة أولى ، ١٩٧١

ثالثا ـ مجموعة ((عبقريات فلسفية)) :

١ ـ « كانت أو الفلسفة النقدية » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٧٢
٢ ـ « هيجل أو المثالية المطلقة » مكتبة مصر ، (صدر منه الجزء الأول) ١٩٧٠ .
٣ ـ « ماركس او المادية الجدلية » (معد للطبع) .

رابعا ـ دراسات فلسفية متفرقة :

١ ـ « دراسات فى الفلسفة المعاصرة » ، الجزء الأول ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨
٢ ـ « برجسون » (مجموعة نوابغ الفكر الغربى) ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧
٣ ـ « تأملات وجودية » ، بيروت ، الاداب ، ١٩٦٣ (نفد) .
٤ ـ « الفلسفة الوجودية » ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ (نفد) .
٥ ـ « مبادىء الفلسفة والأخلاق » ، دار المعارف ، طبعة ثالثة ، ١٩٧٢
٦ ـ « الثقافة الاجتماعية » (الجزء الخاص بالمنطق) ، وزارة التربية والتعليم ، ١٩٥٩ ، طبعة جديدة ، دار المعارف ، ١٩٧٢
٧ ـ « الأخلاق والمجتمع » ، المكتبة الثقافية ، مؤسسة التاليف والترجمة ، القاهرة ، مارس ١٩٦٦

خامسا ـ دراسات جمالية :

١ ـ « فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » مكتبة مصر ، ١٩٦٦
٢ ـ « الفنان والانسان » (مجموعة دراسات جمالية معدة للطبع)

سادسا ـ دراسات اسلامية :

١ ـ « أبو حيان التوحيدى » مجموعة اعلام الفكر العربى ـ مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٤
٢ ـ « ابن حزم الأندلسى » ـ مجموعة أعلام الفكر العربى ـ مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦

سابعا ـ دراسات سيكلوجية واجتماعية :

١ ـ « سيكولوجية الفكاهة والضحك » ، مكتبة مصر ، ١٩٥٨
٢ ـ « الجريمة والمجتمع » ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٥٩

٣ ـ « سيكولوجية المرأة » مكتبة مصر ، ١٩٥٧ (نفد)

٤ ـ « الزواج والاستقرار النفسى » ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧

ثامنا ـ كتب مترجمة :

١ ـ « الفن خبرة » لجـون ديوى ، مكتبة النهضـة العربيـة (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين) ، القاهرة ، ١٩٦٥

٢ ـ «الزمان والأزل» لـ ستيس ، المؤسسة الوطنية (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين) ، ١٩٦٧

رقم الايداع ٣١٥١ / ١٩٧٣

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

هذا الكتاب

دعوة حارة الى التغيير ، تنبعث اليوم من رجل صادق حر نزيه الضمير ، عرف بعمق التفكير ودقة التعبير ... ان مؤلف هذا الكتاب ــ وهو الدكتور زكريا ابراهيم ، أستاذ الأخلاق بكلية الآداب / جامعة القاهرة ــ يعترف منذ البداية بأن « الاصلاح الخلقى أعسر بكثير من أى ضرب آخر من ضروب الاصلاح : فان تغيير عقول الأفراد أشق من تغيير دخولهم ؛ أو ان شئت فقل : ان التحكم فى جيوب الناس أيسر من التحكم فى قلوبهم » ! ولكنه يحاول ــ فى هذه النداءات التى يتوجه بها الى صانعى المستقبل ــ تشخيص الداء ، ووصف الدواء ...

انه يبرز عيوبنا الأخلاقيـة والاجتماعيـة بصراحة وصرامة ، فنراه يضع يده على مواطن الداء فى جسم المجتمع العربى الكبير ، وفى مقدمتها « الفردية » ، و « التواكلية » ، و « الكسل » ، و « الكذب » ، و « النفاق » ، و « التخلف الفكرى » ... الخ . وهو يرى أن من واجب الكاتب الأمين الا يسكت على هذه الأكاذيب الاجتماعية الكبرى فان الصمت ضرب من الخيانة الفكرية ! ولهذا فانه يأخذ على عاتقه فضح كل تلك الأكاذيب ، معلناً فى الوقت نفسه ان بذور الاصلاح كامنة فى أعماق تربتنا العربية الأصيلة

انه لا يدعونا الى قيم جديدة أو معايير مستوردة ، يحاول أن يذكر الانسان العربى بأنه صـاحب دعوة وحامل رسالة . « وقد آن الأوان ــ اليوم ــ لشباب العربى أن ينهض بتحمل التبعة الواقعة على عاتقه ، لا نفسه فحسب ، بل نحو مجتمعه ايضاً ، وليس من أجل حاضره فقط ، بل من أجل مستقبله ايضاً . » .



الناشر : مكتبة مصر